القسم الاول

البلاغة علما وعملا

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف البلاغة

obeikandl.com

obeikandl.com

ان تعريف البلاغة صعب ككل تعريف . جرب مثلا أن تعرف الذكاء أو الجمال أو الحكمة فقد تظن للوهلة الاولى ان ذلك سهل المنال ولا تلبث بعد الامعان أن تتبين خطأ ظنك فترى انه أسهل عليك أن تدرك الاشخاص أو الاشياء المطبوعة بطابع الجمال أو الذكاء أو غيرها من أن تحلل جوهر هذه الصفات عينها . كذلك البلاغة فاننا نفهم بلا تعب ان هذا الرجل أو هذا الخطاب بليغ ولكن الفهم شيء والتحليل شيء آخر

جاء في البيان والتبيين للجاحظ : قيل للفارسي ما البلاغة قال : معرفة الوصل من الفصل

وقيل لليوناني ما البلاغة قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام

وفي العمدة لابن رشيق سئل بعضهم ما البلاغة قال : قليل يفهم وكثير لا يسأم

وقال آخر : هي إجابة اللفظ واشباع المعنى

وقال آخر : معان كثيره في الفاظ قليلة

وسئل بعض الاعراب من أبلغ الناس قال : أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة .

وقال غيره : البلاغة هي الايجاز في غير عجز والاطناب في غير خطل

وقال عبد الحميد بن يحي : هي تقرير المعنى في الافهام من أقرب وجوه الكلام

وقال ابن المعتز : هي البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام

وقال الخليل : هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه

وأنشد المبرد في صفة خطيب :

طبيب بداء فنون الكلام لم يعي يوماً ولم يهذر
فان هو أطنب في خطبة قضى للمطيل على المنزر
وان هو أوجز في خطبة قضى للمقل على المكثر

قال ابو الحسن الرماني: أصل البلاغة الطبع . وقال غيره هي تقصير الطويل وتطويل القصير يعني بذلك القدرة على الكلام

وقال أبو العيناء البليغ من أجزأ بالقليل عن الكثير وقرب البعيد اذا شاء وبعد القريب واخفى الظاهر وأظهر الخفي

قال البحتري في وصف بلاغة عبد الملك الزيات :

ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدّ ـ ركن به غاية المراد البعيد

وقال بعض المحدثين البلاغة : هي اصدار المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ

ومن أقوال الثعالبي: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه وقل مجازه وكثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه وأيضاً : البليغ من يحوله الكلام على حسب الاماني ويحيط الالفاظ على قدر المعاني

وسئل الكندي عن البلاغة قال: ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به، ونوع تعرفه وتتكلم به، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة التي فيكم قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له رجل

من عرض القوم يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب فقال له صحار أجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه وان البرد ليعقده وان القمر ليصبغه وان الحر لينضجه

وقال رجل للقباني ما البلاغة قال : كل من بلغك حاجته وأفهمك معناه بلا إعادة ولاحبسة ولااستعانةفهو بليغ قالوا قد فهمناالاعادةوالحبسة فما معنى الاستعانة قال أن يقول عند مقاطع كلامه اسمع مني وافهم عني أو يمسح عثنونه أو يفتل أصابعه أو يكثر التفاته من غير موجب أو يتساعل من غير سعلة أو ينبهر في كلامه قال الشاعر :

مليء ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الاصابع

وهذا كله من العي

وفي كتب الافرنج تعريفات شتى للبلاغة نقتصر على بعضها

قال لاهارب : البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حقيقية

وقال تين : هي فن الاقناع

وقال : سورن هي الفكرة الصائبة أولا والكلمة الملائمة بعد ذلك

وقال بسكال : هي تصوير الفكر

وقال لابرويار: هي نعمة روحانية تولينا السيطرة على قلوب الناس وعقولهم

وقال دلامبر : هي فن اظهار الشعور

وقال فيري : هي حدة التصور وقوة التصوير

وقال لا كورديز : هي الروح التي تفلت من قيود المادة وتترك الصدر الذي يفلتها لترمي في صدور الآخرين

وقد سمى شيشرون البلاغة.حركة النفس الدائمة . وأقام منها سنيك الهاً مجهولاً في صدر الانسان . وجعلها كانتيليان الواسطة للحصول على

الحقيقة ووضعها كنار في القلب والتصور . وعرفها مارمونتل بأنها فطرة قبل أن تكون فناً . ومثلها الاقدمون بهيئة إله يخرج من فيه عند الكلام سلاسل ذهبية ترتمي على السامعين فتربطهم بها

ولابن المقفع وصف طويل للبلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الاشارة ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل فعامة. هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين فالاكثار في غير خطل والاطالة في غير املال وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته

كل هذه التعريفات تنطبق على البلاغة الا انها لا تؤدي منفردة كل ما في البلاغة من معان ولو أردنا أن نجمع بين هذه الاقوال ونؤلف منها حداً يفي بتفسير البلاغة ويعرفها حسبما يراد منها في هذا العصر وكما يجب أن يتصف بها خطيب اليوم لاضطررنا الى التمييز بين البلاغة الكتابية والخطابية لانه متى كان الفكر صادقاً والتعبير موافقاً فقد بلغ الكاتب ما يريد . وأما الخطيب فيحتاج الى شروط أخر لأن من يتكلم ليس كمن يكتب وقد قلنا في صدر هذا المقال ان المراد من الخطابة التأثير في الجمهور من طريق السمع والبصر فكان من الواجب ارضاء هاتين الحاستين والدخول عليهما بما يقتضيه العطف والايناس وهذا ما يحملنا على اضافة معنى آخر عند تعريف البلاغة ليس هو

الاقناع كما يقول تن بل كما يريد لا كوردير من ادخال عاطفة القائل في نفس السامع واذن يمكننا تعريف البلاغة هكذا : صدق التفكير وحسن التعبير وقوة التأثير

وسيرى القارىء فيما يلي من فصول هـذا الكتاب قرب هذا التعريف من الحقيقة

obeikandl.com

— ٢ —

يقول المثل لا تعدم الحسناء ذامّا وكذا البلاغة فقد وجد من عاب بيانها وأنكر احسانها فقال بعضهم: ان ضرر البلاغة أكثر من نفعها لأنها تسدل على الحقيقة ستاراً من الالفاظ البراقة والمعاني الخلابة فتظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق

وقال آخر : البلاغة تفعل بالتأثير لا الاقناع لأنها تخدر حاسة النقد وتقيم أمرها بالاكراه بما تسوق اليه من تهييج الاعصاب وكلما زاد عدد السامعين زاد تهييجها فكان سلطانها أعظم تأثيراً وأبعد مدى

وقالوا : هي الأصل في كل عداء والسبب لكل بغضاء ومن قديم الزمان الى الآن لا تزال حرب اللسان سابقة لحرب السنان

وقالوا أيضاً : هي اداة نفاق لرجال السياسة يحملونها في كل ناد ويهيمون منها في كل واد

وهذا بعض ما قيل في ذم البلاغة ولكنه على حد ما يقال في ذم الماء لانه يغرق والنار لانها تحرق أو ذم الدواء لأنه من جوهر سام ولوكان من ورائه الشفاء

وقد قيل عن الحضارة والرقي مثلما قيل في البلاغة فاشهروا افلاس العلم وعجز الارتقاء لانه لا يزال على الارض شقاء

واذا كانت البلاغة تستعمل احياناً سلاحاً للباطل فمن العدل أن يتخذها الحق ليحارب بها الباطل ولهذا جعل الاقدمون اللسان في اعلى مقام من الشرف وأدنى مكان من الامتهان

والحقيقة التي يجب ان تعلم وتقال هي ان البلاغة ليست تجارة كلام بل فناً خطير الشأن عزيز المذهب غايته تهذيب النفوس واصلاح الاخلاق وتنوير الاذهان وكبح جماح الشهوات ودعم النظم والقوانين ورد الناس الى الصلاح وهديهم سواء السبيل

من هو الخطيب

obeikandl.com

obeikandl.com

— ١ —

هل يولد الانسان خطيباً كما يولد شاعراً أو بعبارة أصح هل يحتاج الخطيب الى ذلك الوحي الآتي من اعماق النفس كأنه انفجار باطني أم يكفيه العلم والممارسة ليجد سبيلا الى عقول الناس وقلوبهم ؟

من المعلوم ان النطق عمل منعكس من اعمال النفس البشرية كالصمت أو غيره فكما تجد من الناس من تخرسه مشاهد الوجود الرائعة فيقف منها موقف الدهشة والذهول لا يطيق حركة ولا يحتمل صوتاً تجد بعكس ذلك من لا يستطيع السكوت عما يجيش به صدره من مختلف التأثيرات كانما هو يريد ان يشرك بها كل من حوله من حي وجماد . قال الاستاذ كركوس في كتابه فن التكلم في الجمهور ما معناه : تصور راعياً يسوق أنعامه في الخلاء وقد حيته ابتسامة الفجر وهو يفتح للشمس قصره الذهبي أو ناجاه الشفق الوردي وهو يخلع على الكون رداء السكون وانظر أي أثر يكون لهذا المشهد في نفسه فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذاً بروعته وجلاله أو يتناول مزماره وينفخ فيه طرباً وزهواً أو اذا كان خطيباً يرفع رأسه وعينيه ويدعو اليه قوى الوجود الخفية باحثاً عنها في الريح العاصفة أو الموجة الثائرة أو الغصن المائل مع الهواء أو الصخرة الصماء

فالخطيب اذا هو الذي تهزه المؤثرات الطبيعية فيتردد صداها فيه بالوحي ينزل على لسانه والبلاغة تتدفق في بيانه

— ٢ —

هذا التعريف يختص بالبلاغة الفطرية ، وهي اليوم لا تكفي وحدها لبلوغ الغاية من التأثير والجلوس على عرش الأسماع والقلوب . ذلك لأن اتساع دائرة المعارف الانسانية وتعدد وسائل البحث والاختبار قد جعلا موقف الخطيب صعباً فهو يحتاج إلى ذخيرة من العلم كان الأقدمون في غنى عنها لافتقاره غالباً إلى إقامة برهان وتأييد حجة ودفع اعتراض واقناع فئة من الناس قد نضجت عقولها فهي لا تقبل بالكلام يرسل على عواهنه سواء أكان هذا منها عناداً ودعوى أم رغبة بالعلم واستزادة من الفائدة

فالخطيب الذي يجمع إلى استعداده الذاتي وذكائه الفطري اضطلاعاً واسعاً ويكون موفور الحظ من العلم واللغة ليستطيع التكلم في كل موضوع بسهولة ورشاقة واقناع كما يقول شيشرون فهو المصقع البليغ الضارب على أوتار كل فؤاد

لا بد إذن للخطيب من الدرس والمطالعة لأن الحياة كما يشهدها ويقرأها هي ميدان عمله وليس فيها شيء لا يحتاج أن يسمعه أو يبحثه أو يعالجه ولأن الروح كما قال فولتر نار إذا أنت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخبت

لقد أتى على الانسان مئات من السنين وهو يكتب ويخطب فما غادر الشعراء من متردم ولم يبق فكرة لم تمر بخاطر ولم تجر على لسان كما قال زهير

ما أرانا نقول إلا معـارا أو معاداً من قولنا مكرورا

فلا يجب أن يكون هذا مدعاة إلى شعور القارىء بقصوره عن

أن يأتي بأحسن أو بأكثر مما أتاه السلف بل ليذكر أن كل جيل من الناس ينظر الى الحياة نظرة خاصة به مستقلة عن نظرات غيره

وهكذا تتجدد الحياة ومع الحياة يتجدد العمل فاذا جاز لنا أن نقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فقد جاز لنا أن نقول أيضاً لقد ترك الأول للآخر كل شيء

وللمطالعة شرائط لا بد من اتباعها إذا أردت أن تثمر وتنتج نتاجاً مفيداً وهي : أن تكون بتأن وتروٍ لا إفراط ولا تفريط فالذين يفترسون الكتب افتراساً إن صح هذا التعبير لا تلبث قوة الاختراع فيهم أن تضعف والبداهة أن تضيع ولهذا لا تجد أدنى نسبة بين عدد الكتب التي يقرأها الرجل ودرجة ثقافته . أما من يتخذ القراءة ضرباً من التسلية ووسيلة لقتل الوقت فيقرأ كما يدخن متنقلا من كتاب إلى آخر دون ترتيب ولا نظام ولا غاية معينة فهو يستفيد القليل دون الكثير ولا يحفظ مما يقرأ الا بقدر ما تحفظ العين من الصور المتحركة التي تتعاقب أمامها

كانت المطبوعات في القديم نادرة فكانوا يقرأون الكتاب الواحد مراراً ولا يملون الرجوع اليه كلما قضت الضرورة وقد توالت أعصر والكتب المقدسة وحدها مرجع الخطباء المصاقع يجدون فيها ما أرادوا من وحي وإلهام . ولا ريب أن الاكتفاء بمطالعة كتاب مفيد ومراجعته خير من تقليب كتب عديدة لم تتضح فائدتها بعد

وعلى الجملة فالدرس والمطالعة أمران لا بد منهما لفارع المنبر وقد قال الجاحظ : لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك العلم وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التبحر

— ٣ —

تكلمنا عما يجب أن يكتسبه الخطيب ليساعد الفطرة ويزيد رأس ماله وينمي فيه قوة الاختراع ونأتي الآن على صفات أخرى لاتكتسب بالدرس وانما هي تتعلق بالمزاج والاخلاق والتربية الادبية على الخطيب أن يكون .

أولا ـ رابط الجأش ساكن الجوارح لا يأخذ منه الغضب ولا يفرغ عنده الصبر فان الذي لا يكون سيداً على أهواء نفسه لايستطيع أن يتحكم بأهواء سواه . وإذا احتاج إلى الغضب فليكن غضبه خطابياً ، فكما ان الممثل يجتهد أن يجعل تمثيله طبيعياً مطابقاً للواقع ولا يمنعه ذلك من طلاء وجهه بالدهان فالخطيب يقدر أن يخلع على سحنته ما يريد من الملامح دون أن يمس إخلاصه أو يخل بموقفه الطبيعي

ثانياً ـ أن يكون بسيكولوجياً أي نقاباً صادق الحس ملهماً عجيب الفراسة بعيد مطارح النظر يدخل الى أعماق القلوب ويقف على مكنونات الصدور ليخاطب كل فئة على حسب هواها ويحمل عليها على أقدار منازلها فلا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الشباب بكلام الشيوخ ولا العمال بكلام أصحاب المال ويكون له فضل التصرف في كل طبقة

ثالثاً ـ أن يكون سلساً لين العريكة متضعاً يمتزج بمن يخاطبهم ويقرب ما بينه وبينهم فيكون في الظاهر خادماً لهم وهو السيد المطلق . ويجاريهم في أهوائهم كلما قضت الحال لأنه لا يطاع الا اذا عرف أن يطيع كربان السفينة يلين للريح ويسايرها ليسلم بمركبه فلا يتحطم دون الشاطىء

رابعاً ـ أن يكون حاضر الذهن فلا يتجاوز في القول ما يهم سامعيه

وكلما أحس نبوة من النفوس عنه أو ملة للقلوب منه ألقى اليهم نغمة جديدة وطلع عليهم بفكرة غير منتظرة فيمنع التثاؤب والملل ويعيد الانتباه الى مقره ويملك عليهم سمعهم وشعورهم لأن في الخروج من معهود الى مستجد كما يقول الجاحظ استراحة للفكر ورياضة للخاطر

خامساً ـ أن يكون حي الجنان صادق البيان ليحرك من الأعماق عواطف الحرية والانسانية والتقوى والفضيلة الراقدة في قلب كل انسان ويمثل أمام تلك العيون المستعرة الناظرة اليه صور المجد والوطنية ويبعث الكهربائية في نفوس سامعيه فيثيرهم باشارة من يديه ويهدئهم بنظرة من عينيه

— ٤ —

من الناس من تجتمع فيه هذه الصفات أو أكثرها ولا يوفق مع ذلك الى الاجادة في الخطابة لعيوب خلقية تمنع عليه سهولة المخرج أو جهارة المنطق أو تكميل الحروف واقامة الوزن كالمجلجة (التردد في الكلام) والتمتمة (التعتع في التاء) والفأفأة (التعتع في الفاء) واللثغة واللفف وهو أن يدخل الرجل بعض كلامه في بعض والحبسة وهي ثقل الكلام دون أن يبلغ به حد الفأفاء والتمتام والحكلة أي نقصان آلة النطق وعجز أداة اللفظ فلا يسمع الصوت تماماً

أكثر هذه العيوب تبدأ في الصغر وأسبابها التعجل في الكلام وعدم التروي والتدقيق في التفكير والخجل الذي يستولي على المتكلم فاذا كبر زادها ظهوراً عدم التمرين والعادة والتقصير في درس الموضوع الذي يراد الكلام فيه أوفي الاستعداد له أو في استظهاره وليست معالجتها بعيدة المنال ولا اصلاحها مستحيلا فقد كان ديموستين ضعيف البنية والصوت فلما اعتزم الخطابة أخذ يقوي رئتيه وصوته بالصياح وهو يصعد الجبال الوعرة أو أمام شاطىء البحر مغالباً صخب الأمواج مما يدلك على انه بالتربية والتمرين وجهد النفس وأخذ اللسان قد تجيب الطبيعة ويصلح التعهد ما أفسد الاهمال

وأعم هذه العيوب وأكثرها شيوعاً اللثغة التي يحول بها اللسان من السين الى الثاء ومن الراء إلى الغين أو الياء وقد كان ديموستين يسعى الى سترها بوضع حصى في فيه عند الكلام وتكلف مخرج الراء على حقيقتها — وروى الجاحظ عن واصل بن عطاء انه كان قبيح اللثغة شنيعها فحاول اسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه فلم يزل

يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأنى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل . قال الجاحظ وكان واصل طويل العنق جداً وفيه قال بشار الأعمى :

مالي أشايع غزالا له عنق كنقنق الدوّ ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم أتكفرون رجالا أكفروا رجلا

فلما هجا واصلا وصوب رأي ابليس في تقديم النار على الطين وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

قال واصل بن عطاء : « أما لهذا الملحد المشنف المكتنى بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالين لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله » فتجنب الراء في كل الجملة وحين لم يستطع ان يقول بشار وابن برد والمرعث جعل المشنف بدلا من المرعث والملحد بدلا من الكافر . وقال لبعثت اليه من يبعج بطنه ولم يقل لأرسلت اليه وقال على مضجعه ولم يقل على فراشه

وقد يفسد النطق عند الكثير من الخطباء بفساد طريقة التنفس وجهلهم أصولها وقد شرحنا هذا في القسم الثاني من الكتاب ، أو لعلة في اللسان أو الشفاه أو في الاسنان من نقص أو تكسر

وخلاصة القول ان التغلب على هذه العاهات لا يتعذر على الحكيم الصبور بالتمرين والحيلة والانتباه الدقيق والتأني في تلفظ الحروف وما اليه

obeikandl.com

الانشاء الخطابي

obeikandl.com

obeikandl.com

- ١ -

للكتابة انشاء خاص وللكلام انشاء آخر ومن يجيد الواحد قد يجيد الثاني بل ربما كان تناقض بين الاثنين فان السواد الاعظم من مشاهير الكتاب لم يكونوا خطباء وبخلاف ذلك قلما تجد بين الخطباء من لا يعد كاتباً

واذا كان الكاتب غير الخطيب فليس ذلك فقط لانه لا يعرف ان يتكلم كما يعرف ان يكتب بل لأن كتابته لا توافق المنبر فان المكتوب ينال بالنظر ويذاق بالفكر أما المقول فهو لا يصل الى القلب الا اذا مر في الاذن وللاذن احساس يجب ارضاؤه ونعومة يحاذر من تخديشها والشعور الذي يثيره السمع ليس كالذي تولده القراءة فضلاً عن ذلك فان عقلية الجمهور المحتشد في مكان عمومي تختلف عن عقلية الفرد المعتزل في غرفته

إذن يوجد انشاء للسمع كما يوجد انشاء للقراءة فما هي اصول هذا الانشاء وقواعده ؟

قال ابن المعتز والشيباني ان البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر وتتأمل بوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر ثم يعود القلب على ما أعمل به الفكر فيحكم سياق المعاني والأدلة ويحسن تنضيدها ثم يبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها

هذه الاركان الثلاثة التي تقوم عليها البلاغة هي مايسميه الافرنج في تقسيمهم بالاختراع أو الايجاد والتنسيق والتعبير

فالاختراع هو استنباط الوسائل (*) الخليقة باقناع السامع وتحريك عواطفه

* هذه الوسائل يقال لها الادلة وتسهيلا لاستخراج هذه الادلة قدوضع الاقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها وأطلق العرب عليه اسم مواضع قال ابن سينا ان الحجج في الجدل والخطابة تكتسب من المواضع فمن طلب الاقناع وهو لا يعلمها كان خاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل في الموضوع بل لنقص في الاستعداد

وهذه المواضع تتناول (١) الحد (٢) التجزئة (٣) الجنس والنوع (٤) العلة والمعلول (٥) المقدمات والتوالي (٦) الظروف (٧) المقابلة والمشابهة واليك بيانها بايجاز نقلا عن المرحوم الاب شيخو اليسوعي

الموضع الاول : الحد

هو تعريف الشيء بجنسه وفصله كقولك الانسان حيوان ناطق أو بمميزاته وخواصه كقولك العقل وزير مرشد من أطاعه نجاه أو بالسلب والايجاب كقول الشاعر

ليس من يقطع طرقا بطلا انما من يتقي الله البطل

أو بالتشبيه كقول ابن العربي

كتابي فيه يستاني وزادي ومنه تمير نفسي والنعيم

الموضع الثاني : التجزئة

هي تقسيم الكلي الى أجزائه كما تقسم الكائنات الى حيوان ونبات وجماد أو الحياة الى طفولة وشباب وكهولة وهرم فيثبت الخطيب للكلي ما يثبت لاجزائه كقول أبي العتاهية يصف أن الموت يعم البشر ولا يرد غاراته أحد

ما يدفع الموت ارجاء ولا حرس ما يغلب الموت لا جن ولا أنس

للموت ما يعد الاقوام كلهم وللردى كل ما شادوا وما غرسوا

أو ينفي عن الكلي ما ينفيه عن الاجزاء كما لو اراد أن ينفي السعادة عموما في الدنيا فينفيها أولا في أشياء الدنيا من مال وجاه وغير ذلك . أو يقرد

والتنسيق هو تنسيق وربط اجزائها بعضها ببعض وترتيبها ترتيباً جميلاً بحيث تكون أبين غرضاً وأحسن في النفوس وقعاً (* *)

لواحد ما أنكره على بقية الاجزاء كاثبات تهمة القتل مثلا على واحد بعد نفيها عن سائر المتهمين . أو يقرر لاجزاء الكل ما نفاه عن جزء واحد كقول الشاعر

الا كل شيء ما خلا الله باطل

الموضع الثالث : الجنس والنوع

الجنس يدل على كثرة مختلفي الانواع والنوع على كثرة مختلفي الاشخاص مثلا : الحي جنس يشمل أنواع الانسان والحيوان والنبات والانسان نوع يشمل الزنجي والابيض وغيرهما والاستدلال بالجنس والنوع طريقتان الاولى أن تطلق حكماً على الجنس ثم تثبته للنوع كما لو اردت أن تبين أن القناعة محمودة فتثبت أولا أن الفضيلة محمودة لان الفضيلة جنس يشمل القناعة. والثانية أن تنفي عن النوع ما تنفيه عن الجنس

الموضع الرابع : العلة والمعلول

العلة على أربعة أنواع : الفاعلية وهي المؤثرة في المعلول كالبناء بالنسبة الى الدار والغائية وهي ما كان لاجلها البناء كسكنى الدار هو الغاية من تشييدها.

والمادية وهي ما تألفت منه اجزاء الشيء كالحجارة والخشب في بناء الدار والصورية وهي ما قامت به ماهية الشيء كصورة الدار تميزها عن غيرها من المساكن كالقصر والخيمة والكوخ

والاستدلال بالمعلول هو إن أردت أن تثبت حكماً لامر أو تنفيه عنه أن تعدد مفاعيله الحسنة أو السيئة التي يستدل بها على صلاح العلة أو فسادها اذ لاشيء في المعلومات الا وهو في عللها فتبني حكمك على مقتضى ذلك لترغيب الجمهور فيه أورده عنه

الموضع الخامس : المقدمات والتوالي

المقدمات ماسبق المقصود والتوالي ماعقبه مثلا ان أردت أن توجب السرقة على انسان أمكنك ذلك بما تقدم العمل من اختفاء السارق أو تجسسه وسوابق المتهم وبما تلا العمل كاغتنائه بعد الفقر وانفاقه عن سعة وغير ذلك

والتعبير هو افراغ المعنى في القالب الموافق والباسه الحلة اللائقة به ليصل الى قلب السامع من أقرب طريق وأسهل سبيل

الموضع السادس : الظروف

هي العوارض الطارئة على الامر المقصود فتلبسه لبوسها وتخرجه عن هيئته ونوعه وان لم تكن عن جوهره وحقيقته مثلا : حادث قتل فانه لا يتم الا في زمن ومكان محصورين وبهيئة معلومة وبغاية محدودة وعن أشخاص معروفين فالزمن والمكان والهيئة والغاية وصفات الاشخاص كلها ظروف خارجة عن الامر لا تمس جوهره لانها تتغير والقتل يبقى قتلا لكنها تغير صورته وتخرجه من نوع الى نوع فيكون اما تعديا واما دفاعا واما غير ذلك

الموضع السابع : المقابلة

هي في اصطلاح الحكماء امتناع وجود شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة كالجهل والعلم والزهد والطمع وما شاكل فانها تتنافى في موضوع واحد فان كان زيد مثلا براً بابيه فينكر عقوقه له وفائدتها زيادة جلاء الموضوع كما يقول الشاعر وبضدها تتبين الاشياء والاحتجاج بالمقابلة على ثلاثة وجوه (١) أن تثبت أحد المتقابلين فتنفي الآخر كقول علي بن أبي طالب يبطل زعم قريش في جهله لامور الحرب : قالت قريش ان ابن أبي طالب شجاع ولكنه لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! وهل منهم أحد أشد مراساً وأطول تجربة مني لقد مارستها ابن عشرين وهانذا قد نيفت على الستين . (٢) أن تنفي أحد المتقابلين فتثبت الآخر كقول الشاعر

وكيف تريد أن تدعى حكيما وأنت لكل ما تهدى تبوع

(٣) أن تستنتج من متقابلين نتيجتين متباينتين مثاله مقابلة الطرطوشي عدل السلطان وجوره

الموضع الثامن : المشابهة

هو عرض أمر على آخر ليتخذ منه دليل على المقصود فان قلت حياة الانسان كسحابة استدللت على فنائها وهي على ثلاثة وجوه (١) ان تعرض

ولكن هذا التقسيم يشمل الكاتب والخطيب معاً ولا يبدأ الفرق بين الاثنين الا عند الركن الثالث فان تعبير الخطيب يتبع الذوق وما

المقصود على ما هو أكبر وأكثر فتستدل على صحة ما هو اقل أو أصغر كقول أبي عبيدة يدعو أهل الشام الى فتح مدينتهم للعرب « لا يغرنكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة زادكم وهول أجسامكم فانا نزلنا بلادا أخصب من بلادكم وفتحنا أمصاراً ممصرة ومدائن أحرز من مدينتكم وخرج علينا اعلاج موفورة أقواتهم مدرعون متسرون لا يقر لوجههم قرار فهوى نجمهم وذهب أمامنا ريحهم ورددناهم على الاعقاب » . (٢) أن تعكس الآية كقول الغزالي يثبت أنه لا عجب من قصور الانسان عن ادراك الكمالات الآلهية اذ لا يدرك الحقائق الطبيعية نفسها وهي أقرب منه :

أنت أكل الخبز لا تعرفه كيف يسري فيك أو كيف يجول
كيف تدري من على العرش استوى لاتقل كيف استوى كيف الوصول

(٣) أن يعرض المقصود على ما يشبهه بالمساواة كقول علي أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها

هذه هي المواضع التي يرجع اليها في كل بحث يراد الدخول فيه وهي ذاتية أي تستفاد من الموضوع نفسه كما ترى ولكن هناك مواضع عرضية تستفاد من التقاليد بالاستشهاد بالتواريخ والكتب المقدسة وأقوال المشترعين والحكم السائرة وما الى ذلك أنتهى

(**) أما التنسيق وهو الركن الثاني من أركان البلاغة فهو الذي يقسم الخطبة الى ثلاثة أقسام المقدمة والاثبات والخاتمة

فالمقدمة تتناول براعة الاستهلال وتبيين الموضوع بصورة اجمالية واستمالة الحضور واسترعاء سمعهم وقد كان العرب يفتتحون خطبهم بالحمدلة ثم يردفون بالسلام على أنبياء الله وأصفيائه ويأتون بفصل الخطاب وهو أما بعد . أما اليوم فقد استغنى أكثر الخطباء عن هذه التقاليد مكتفين بمقدمة وجيزة فيها ثناء أو اعتذار أو تنويه باهمية الموضوع أوغير ذلك من الاستشهاد بمثل سائر أو حكمة دائرة مما يشوق الحضور ويحملهم على الاصغاء

والاثبات هو عرض القضية وتأييدها بالحجج وتعزيزها بالادلة والرد على مزاعم الخصوم الى آخره

والخاتمة هي آخر ما ينتهي الى اذن السامع من كلام الخطيب

يدعو اليه المقام من تقصير الجمل أو تطويلها والتكرار تارة والتسجيع طوراً وانتقاء الالفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع المؤثرة فيه أثراً حسنا والتحليق في سماء الخيال حيناً والنزوع الى النكتة حيناً آخرمع تطبيق ذلك على ما يضاف اليه مما يكمله كالاشارات والملامح والنظرات ونبرات الصوت وجاذبية الخطيب وسائر ما يمكن الانسان الحي أن يضيفه من الحياة الى هذا الشيء الحي الذي يقال له خطابا

وها نحن أولاء نبحث فيما يتعلق بهـذا التعبير ويخلع على الانشاء الخطابي مسحة خاصة جاعلين فصلا آخر لما نسميه مكملات الخطيب فيرى القارىء بعد هذا الشرح صدق التعريف الذي وضعناه للبلاغة في أول الـكتاب

— ٢ —

ان الكلمات التي تألف منها الجمل هي كحجارة الفسيفساء لها لونها الخاص وشكلها المحدود ولكنها تمثل صوراً مختلفة حسب تركيبها وتداخلها بعضاً في بعض . فكما انك قد تجعل من قطع الفسيفساء صورة تدل على القبح أو الحسن والألم أو اللذة وغير ذلك من الاضداد تبعاً للطريق التي تؤلف بها بينها كذلك تستطيع حسب اختيار الالفاظ وتركيبها أن تمثل هذه العاطفة أو تلك تمثيلا كاملا أو ناقصاً ولا يتم لك الاتقان الا اذا وقع اختيارك في موقعه وكان لك اللفظ الموافق والتعبير الصادق

قال القلشقندي ان الالفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الابدان فالوجه الصبيح يزداد حسناً بالحلل الفاخرة والقبيح يزول عنه بعض القبح كما ان الحسن ينتقص حسنه برثاثة ثيابه وعدم بهجة ملبوسه والقبيح يزداد قبحاً الى قبحه .وقد قال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين : ليس الشان في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف

من الألفاظ ما هو فخم كأنه يجر ذيول الأرجوان أنفة وتيهاً

ومنها ما هو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح

ومنها ما هو كالسيف ذي الحدين

ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يلقيه الشعر على بعض العواطف ليستر من حدتها ويخفف من شدتها

ومنها ما له وميض البرق

ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء

من الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعد للرضى والغفران

ومنه ما يضيء كالشهب وهو كلام التعظيم

كذلك من الألفاظ ما ليس له طابع خاص فيؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى فهو يلائم كل حال

تلك هي الأدوات المعدة لبناء الخطبة تتطلب مهندساً بارعاً ومصوراً حاذقاً ليؤلف بينها تأليفاً موافقاً ويرصفها رصفاً حسناً ويخلع عليها برداً جميل النسج لامع الديباجة يترجم معنى العظمة أو الجمال أو القوة كما في حجارة الفسيفساء . واذا وقف الخطيب عند انتقاء الألفاظ ولم يعن بالتأليف والرصف فاته القصد وقصر دون الغاية من البلاغة لأن الألفاظ حاصلة لكل إنسان دائرة على كل لسان ولا يمتاز جامعها إلا بفضل تركيبها قال الجاحظ : أنظر إلى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين » وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الاتيان بمثلها ولا يستطيع أفصح الناس مضاهاتها . على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة فقوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الاعجاز

ان البلاغة لا تقتصر على إفهام السامع كلام القائل وإلا لتساوت الفصاحة واللكنة والملحون والمعرب وإنما المقصود الافهام على سنة كلام

البلغاء بأن « يجعل لكل طبقة كلام ولكل حال مقام » وان يخلع الخطيب من ألفاظه على معانيه حلة نور وضياء ليتسنى للسامعين أن يشاركوه في تلك الرؤيا الجميلة التي تتجلي في ذهنه وبين تصوراته ولا يكون الخطيب فيما يقول كالرجل الذي يكثر من الاشارات في الظلمة ثم هو يتعجب كيف لا يراه الناس

obeikandl.com

— ٣ —

ان الاساس الذي يبنى عليه الانشاء الخطابي هو العاطفة والشعور لأن الغاية الأولى من الخطاب هي أن تنقل ما في قلبك من الاحساسات إلى قلوب سامعيك قال دلامبر : « ان الذي يكتفي بالاقناع دون التحميس فهو متكلم لا بليغ ». وقال رفاور : « ان الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير ». وقال ميرابو : « السر كل السر في البلاغة الخطابية أن يكون الانسان ملتهباً بالعواطف » . قال الحسين : « وسمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته من قلبه بموضع » : يا هذا ان بقلبك لشراً أو بقلبي ، يريد ان الكلام الخالي من العاطفة قد يكون مفعما بالحقائق ، ولا يجد مع ذلك سبيلا الى النفس

وبما أن الشعور هو اساس الخطبة كانت البساطة أجمل حلة يلبسها الانشاء الخطابي ولا أعني بذلك أن يكون الكلام مبتذلا عامياً بل أن يوافق الزمان والمكان فللمعاني العظيمة كلام عظيم كما بينا . ولا يستلزم كون الجمهور من العوام أن ينزل الخطيب بأساليب التعبير عن مقامها بل عليه أن يرفع العامة نحوه لأن الفن فن أينما كان

— ٤ —

وبعد العاطفة يأتي الخيال والتصور الشعري لما فيهما من حلو التنقل، الذي يسوق اليه التلاعب بالمعاني ونتيجته تجديد الانتباه عند السامع ودفع الملل عنه فضلا عما يكتسبه الخطاب من جميل الألوان وبديع الزخرفة وجديد الصور كما سترى في غير هذا المكان

ولكن للتصور والخيال حدوداً اذا تعداها الخطيب وقع فيما حاذره ومهما يكن من أهمية الموضوع وجمال الصور المعروضة فان الاسهاب أو الضرب على وتيرة واحدة يتعب السامع ويفضي به الى السأم . ألا ترى ان اطالة النظر الى الغدير الجاري والاستمرار على سماع خريره العذب يفضيان بنا الى النعاس؟ بل ان هدير الامواج المتصاخبة ، وزئير الرياح العاصفة ولعلعة الرعود على مافيها من تهييج الاعصاب تنتهي بنا الى النتيجة عينها اذا طال أمرها وتكرر حتى تألفه الاذن ويأمن منه الخاطر . كذلك انشاء الخطيب اذا ازدحمت فيه المعاني الشعرية وتكاثرت فيه صور الخيال ، فان العقل يتعب والانتباه يتبدد ولا يبقى من الخطاب في اذن السامع الا سلسلة أصوات متعاقبة كأنها آتية من أعماق النوم

أما الاكثار من الادلة المنطقية والاغراق في الشرح والتفصيل والاسهاب في البيان والتعليل فذلك جائز في نثر الكاتب لان للقارىء متسعاً من الوقت للتأمل والتبحر بخلاف السامع الذي يتلقى الجملة بعد الجملة ولا قبل له بالمراجعة أو التوقف بل تراه مضطراً الى اتباع الخطيب والتقاط أقواله المتدفقة على سمعه ولهذا كان من اللازم أن تأتي هذه الاقوال واضحة صريحة مختصرة تفعل بالجزم والتأكيد أكثر مما تفعل بالبرهان والمنطق

ان القارىء حر في مواصلة قراءته أو الوقوف للاستراحة والتأمل وأما السامع فهو معلق بشفتي الخطيب محمول معه في كل ناحية لا قبل له بالوقوف أو الاعراض دون أن تنفصم عرى الالفة بينهما فيذهب من الخطاب روعته أو بعض روعته ، وتفوت السامع فائدته أو جزء من فائدته

وبقدر ما يقتصد الخطيب على السامع في الفاظه وجمله يوفر من انتباهه لادراك معانيه والتأثر بها لان اللغة كما لا يخفى هي في آن واحد آلة للنقل وعائق دونه

فالانشاء الخطابي يختلف كثيراً عن الرسائل لاضطرار الخطيب أن يتبع فيه أحوال نفسه والمكان الذي يتكلم فيه والجمهور الذي يصغي اليه فتكون اللفظة في وزن الاشارة والمعنى في طبقة اللفظة فيفصل بين الجمل ويكرر بعض الالفاظ مسهباً هنا موجزاً هناك متمهلا في بعض المواضع مكرّرا في غيرها واقفاً حينما يرى ضرورة الوقوف ليترك للسامع مجالا يستوعب فيه ما أراد أن يلقيه اليه أو يقصر انتباهه عليه

على كل حال فان آفة الخطابة التطويل ومهما تكن العبارات متناسقة والانشاء رشيقاً والموضوع شيقاً والخطيب ممتازاً فما منع ذلك أن يكون السامعون بشراً مثله لهم آذان تصم اذا أجهدتها وبصر يكل اذا أتعبته ولا يجب أن ينسى الخطيب ان استعداد الجمهور أو قابليته للاصغاء ليست واحدة فعليه أن يختار أوسط الطرق في شرحه وبيانه . يروى ان ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع فلما انصرف اليها سألها كيف سمعت كلامي قالت ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده قال اردده حتى يفهمه من لا يفهمه قالت الى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد مله من فهمه

ان العبرة كل العبرة هي أن يحمل الخطيب عقول سامعيه في تيار العبارات الجميلة الموسيقية فيهز تلك العقول هزّ الطفل في السرير ويملك عليها جهد التفكير ويخدر فيها حاسة النقد ويجعلها في شبه غيبوبة من سكر الفصاحة ثم تأتي كلمة هي الكلمة الفاصلة المنتظرة مدعومة أحياناً بنبرة في الصوت أو ضربة على المنبر فتوقظ تلك النفوس وقد عرفته بعد إنكارها ونازعت اليه بعد نفارها

واللغة العربية قابلة للانشاء الخطابي أكثر من سواها لوفرة غناها بالالفاظ والتشابيه والاستعارات وما فيها من جزالة لفظ وفخامة تركيب ورنة تسجيع وما تقدر عليه من ايجاز واطناب فاذا ساعدها الاسلوب والخيال كانت على لسان البليغ خمراً تدب في النفوس وسحراً يسطو على الرءوس

وربما نزل الانشاء الخطابي أحياناً عن نثر الكاتب في دقة المعنى ومتانة المبنى الا ان في فصاحة اللهجة وجمال اللفظ وجهارة الصوت وإجادة الاداء ما يستر هذا العيب فيخرج السامع مأخوذاً بما سمع ولو لم يحفظ منه شيئاً قانعاً بما أحس به من التأثير راضياً عما حصل عليه من اللذة

نختم هـذا الفصل بذكر ماورد على لسان بشر بن المعتم من غالي النصائح في تعليم البلاغة قال :

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً واشرف حسباً وأحسن في الاسماع وأحلى في الصدور وأسلم من ناقص الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالفكر والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ومهما اخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصداً وخفيفاً على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه

« وإياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله الى ان تكون اسوأ حالامنك قبل أن تلتمس اظهارهما . ولا تهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما وكن في ثلاث منازل فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة ان كنت للعامة أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال.

« وكذلك اللفظ العامي والخاصي فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك ان تفهم

العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام

« فان كانت المنزلة الاولى لا تؤاتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها والى حقها في اماكنها المقوية لها والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة في موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير أوطانها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد وان انت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك بصيراً بما عليك أومالك عابك من انت أقل عيباً منه ورأى من هو دونك أنه فوقك فان ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصيغة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكر فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمؤاتاة ان كان هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرف

« فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك وأخفها عليك فانك لم تعشقه ولم تنازع اليه الا وبينكما سبب والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا »

obeikandl.com

المنبر

obeikandl.com

obeikandl.com

— ١ —

الوقفة

كان الخطباء في القديم يتكلمون وقوفاً الا في الاحوال العادية البسيطة ولم يكن لخطيب الرومان ما يعيق حركاته فكان مستقلا عن المنبر لا يجد أمامه ما يستند اليه أو يضايقه

وكان من عادة العرب الوقوف على نشز من الارض أو القيام على ظهر دابة ورفع اليد ووضعها واتخاذ المخاصر بأيديهم والاعتماد على عصا أو قناة أو قوس الاشارة بها

وأول من عمل المنبر فيهم تميم الداري عمله للنبي وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام

أما اليوم فأيان كان الخطيب فالغالب أن يضع أمامه شبه مائدة أو كرسياً أو غير ذلك وهو لايحتاج عند الانتبار الا الى اتخاذ وقفة طبيعية بعيدة عن التكلف مع اجتناب بعض العادات المستهجنة كوضع اليد على الجنب أو كثرة الحركة والتخطر جيئة وذهاباً

واذا كان في المنبر فائدة للخطيب الحديث العهد بالخطابة لانه يجد لديه شبه فاصل يحميه من الجمهور فالمقتدر الجسور يتضايق منه ويشعر كانه مأسور في قفص يضع حداً لحركاته وصوته

على كل حال يجب أن يكون الخطيب في وقفته معتدل القامة آخذاً بصدره الى الامام مقدماً رجلا عن الاخرى لاجل التوازن واراحة التنفس واسعاد الصوت

ولا بد له قبل الشروع في الكلام من التنظر حيناً ليتم له السكوت

ويكون لديه متسع من الوقت للتعرف الى الجمهور ولا سيما اذا كان صعوده الى المنبر بعد نزول خطيب آخر عنه فان هذا التريث يساعد على إلفات نظرهم وجمع انتباههم بعد أن يتباعد عنهم صوت الخطيب السابق ويذهب صداه من آذانهم فيكون للكلام الجديد موقع الطف في القلوب ومخالطة أجمل للنفوس

obeikandl.com

— ٢ —

الصورة

لا ريب في ان جمال الملامح واعتدال القامة من الامور التي تساعد على اجادة التأثير غير انها ليست واجبة الوجود وهذا هو ميرابو خطيب الثورة الفرنسية كان من البشاعة على جانب عظيم ولم يمنعه ذلك البلوغ من تأثيره في معاصريه الى أبعد مدى وكذلك دانتون

ذلك لان جمال النفس والعواطف يتجلى عند الكلام في الوجه والعينين وهو الذي يخلع على سحنة المتكلم حلة من الرواء تأخذ بلب السامع فينسى معها قبح المنظر وقد كان أحد أشياع سوكرات يقول لتلميذه : تكلم حتى أراك

وحكي عن كوكلين الممثل المشهور انه لما ظهر على ملعب التمثيل في رواية سيرانو ده برجراك وهو يحمل أنفاً دونه أنف ابن حرب كاد الضحك يستولي على النظارة فما هو الا أن تكلم حتى ملك الآذان برخامة صوته وبلاغة الشعر الذي كان يلقيه القاء ليس وراءه معلق لطاعن ولا مأخذ لعائب فكانت النفوس تتهادى تحت نغماته الساحرة كما تتهادى مع النسيم أغصان الشجر

ثم ان في دمامة الخلق مفاجأة تحمل الانسان على الاعجاب بعد التعجب والاكبار عقب الازدراء لان الناس كما قال الجاحظ يقدرون عادة غير ما يضمر الخطيب فاذا بحسن كلامه قد تضاعف في صدورهم ونال منهم أكثر مما لو كان جميل الطلعة

ذكر الجاحظ ان أبا وائلة بن معاوية المزني أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس ورأوه أحمر دميما باذ الهيئة قشفاً فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا اليه وقالوا الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا في زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك

obeikandl.com

— ٣ —

الصوت

من المعلوم أن جهارة الصوت وحلاوة نغمته وصفاء رنته من الامور اللازمة لكل خطيب لأن عليها المعول في ايصال كلامه الى آذان السامعين فقلوبهم وقد أسمى الاقدمون الصوت نوراً لأنه يحمل شعلة الضياء الى الاذهان وكم من الخطباء الذين يسحرون بصوتهم أكثر من بيانهم

لهذا كان من الواجب على كل من فرع المنبر أن يعنى بصوته عناية خاصة ويدرس درجة استعداده ومدى اتساعه ومقدرته على احتمال التعب فيصرفه فيما يلائم من وجوه الكلام ولا يحمله فوق طاقته . فاذا كان الخطاب طويلا والمكان واسعاً وليس في صوته سعة المكان والوقت لم يرتفع به عن طبقة معلومة ولا سيما في بداية الخطبة لئلا يسرع اليه التعب فيقصر عن مدى غايته . فضلا عن ذلك فان عليه أن يتمهل في النطق ليساعد الصوت فلا يفوت الاسماع من مقاطعه ما يضر بالنتيجة ويقف دون المراد

كانت الخطابة قديماً في الأماكن العمومية ولما خطب ارسامنيوس الثاني داعياً الى الصليبية كان الجمع المحتشد عظيما الى حد أن ضاقت به المدينة فأقاموا للبابا منبراً على أكمة في خارجها وبما أنه لا يمكن لصوت بشر أن يسمع كل هذا الحشد فقد كانت الناس تنقل كلامه من صف إلى صف

وكذا جرى في ارلندا عند ما كانت تتألب الناس لسماع اوكونله

غير أن الكلام في الفضاء يتعب الصوت كثيراً ومهما يستعمل الخطيب من الحكمة والتفنن في اسماع صوته لا يسلم من الكلل والعياء . أما في الاماكن المقفولة فمن السهل اجتناب الاجهاد وكل ما يتعب الحنجرة على شرط أن يكون شكل البناء في هندسته موافقاً لنقل الصوت فيسهل على الخطيب ايصاله الى كل ناحية

ان سرعة الصوت هي ٣٤١ متراً في الثانية على حرارة ١٦ سنتيكراداً وكلما خفت الحرارة خفت سرعته فالهواء الساخن هو اذاً أفضل لنقل الصوت وهذا ما يجعل الكلام أولى في الاماكن المحصورة . أما الريح فانها تؤثر في قوة الصوت لا في سرعته

وبعد أن يتبين الخطيب درجة صوته واستعداده ومداه وحالة المكان عليه أن يجتهد في تحصيل أقصى ما يمكن تحصيله من الصوت فلا يتوجه به إلى فوق أو الى الجانبين فيبدد أكثره سدى . وعليه أن يتلاعب به بين صعود وهبوط مغيراً في نبرته ونغمته ووقفاته حسب المعنى والصورة والعاطفة ابعاداً للملل جامعاً بين الصوت الطبيعي والصوت الموسيقي متحاشياً أن يضعف الصوت في آخر الجملة لئلا تنتهي هذه بين شفتيه كأنها تحتضر ولا تصل الآذان إلا مائتة

وسنرجع فيما بعد الى الكلام عن الصوت وطرق تقويته بالوسائل الطبية والقواعد الصحية

— ٤ —

الاشارة

لا يخفى أن للاشارة أهمية كبرى لأنها تشارك النطق في نقل الفكر متخذة لها البصر سبيلا فهي اللغة العمومية التي يفهمها كل انسان وما تحدثه من التأثير هيهات أن تأتي بمثله لغات العالم

والخطيب البليغ قما يحتاج الى الاشارة عند ما تتزاحم على شفتيه خواطر القلب والفكر. ومن الخطباء من لايستعملها أبداً كما أن منهم من يفرط فيها وهذا يرجع في الغالب إلى العادات والأخلاق فالانكلوسكسون مثلا خلاف الشعب اللاتيني ولهذا عندما ذهب جوريس الى لندن للخطابة في جماعة الاشتراكيين لم يجد من النجاح ما تعوده في بلاده بل كان تعجب القوم منه أكثر من اعجابهم به

على أن الاشارة كما قلنا ضرورية للخطيب بوجه الاطلاق وبها يملك الانتباه ويصل الى ما يبغي من التأثير . والصوت مهما تختلف تموجاته لا يكفي للافادة والاقناع والتعبير عن معاني اللذة والالم والغضب واليأس والاحتقار وما الى ذلك ان لم تساعده حركات اليد وملامح الوجه وبريق العينين واشارة الطرف والحاجب

فضلا عن ذلك فان حركة الايدي فسيولوجية أي انها لازمة طبعاً لأنها تساعد على امتلاء الصدر واخراج الهواء كلما احتيج الى رفع طبقة الصوت كما في حال الغضب أو غيره ولا يستطيع المرء أن يتكلم بصوت عال ويداه الى جنبيه دون أن يحس ضيقاً وتعبا

وقد اتفق الفن مع الهجين ففي الكلام العادي المعتدل كالوصف

مثلا يجب قلة الحركة واما في الحماسة وغيرها من مثيرات العواطف فالحركة الكبيرة الواسعة لازمة لتفريج الصدر المتلىء هواء فلا ينال التعب من الخطيب او صوته

ولكن الاكثار من الاشارة باليد خطل وتبديد لانتباه السامع فعلى الخطيب ان يفهم ذلك فيقتصد فيها وان يتخذ الذوق مرشداً ودليلا

ويجب أن توافق حركة اليد المعنى وتسبقه فان قلت لانسان مثلا أخرج من هنا فأول ما ينتظره منك ان تمد يدك أو أصبعك نحو مكان الخروج كانك تدله عليه

وليست كل الاشارات لازمة في كل حال بل منها مالا حاجة اليه على الاطلاق ولا معنى له كمد الاصبع أو بسط اليد أو الضرب على المنبر عند كل جملة أو حك الرأس أو ما وراء الاذن

وتختلف الاشارة باليد حسب المكان فتكون واسعة في الهواء المطلق وقد يستغنى عنها في المكان الضيق فيكتفي الخطيب بملامح الوجه وحركات الطرف والحاجب

شروط الاشارة باليد

١ ـ أن لا تمر من أمام جسم الخطيب

٢ ـ أن لا تخفي وجهه

٣ ـ أن توافق المعنى فلا تكبر وتتسع لدى الشرح الهادىء

٤ ـ أن تكون سريعة في أولها كلما كان الكلام حاداً منتهياً

٥ ـ ان تسبق الكلام ولا تأتي بعده

٦ ـ كلما احتيج الى الاشارة بيد واحدة تستعمل اليد اليمنى اذا كانت الرجل اليمنى الى الامام والعكس بالعكس

عيوب الاشارة

١ ـ الضعف : عند ما لا تأتي مع المعنى ولا تدعمه

٢ ـ الابهام : عندما يحتد الخطيب بلا سبب ويأتي بها غير مطابقة لمعنى الجملة

٣ ـ المبالغة : عندما يفرط فيها بلا حساب

٤ ـ الكذب : عندما تأتي مخالفة للفكر والعواطف

قلنا ان الاشارة لغة النطق ولهذا كان لها مثله قواعد فكما تتميز بعض الالفاظ عن سواها ويقف المتكلم عندها لأهميتها تمتاز بعض الحركات فيقف بها عند هـذا الظرف أو ذاك الفعل أو تلك الصفة . واذا اجتمعت صفتان في جملة فالاشارة تكون للصفة الاخيرة كما لو قلت هذا رجل عاق خائن فالاشارة يجب ان تكون للخيانة دون العقوق وقس عليه . وكلما كان تدريج في التصورات كان مثله تدريج في الكلمات وكان مثله تدريج في الاشارة لأنهـا كما قلنا وأعدنا لغة مكملة للنطق وخادمة له وبدونها لا يكون للخطاب أثره المطلوب

وعلى الخطيب أن يكون طبعياً ويحمل في نفسه شرارة الايمان بما يقول ليؤثر من غير صراخ ولا تصنع . وكل المواعظ والخطب لا تجدي فتيلا اذا لم يعرف قائلها أن يترجم باشارة أو حركة ما لا يمكن الكلام ان يعبر عنه . وكم من اشارة تغني عن جملة طويلة

— ٥ —

السحنة

يجب ان تشارك ملامح الوجه والالحاظ حركات اليد ونبرات الصوت والا كان الخطيب بارداً لا حياة في بيانه ولا قوة في برهانه

ان في العيون لغة تمثل الرجاء والامر والتعجب والسرور واليأس والسخرية والاحتقار والغضب والحب وما الى ذلك . وفي ملامح الوجه الشباب والهرم والصحة والمرض والالم والقوة وما شاكل

فالشباب والصحة والغبطة تجدها في ارتفاع خطوط الوجه كما تجد المرض والضعف والالم في انخفاضها وعليه يسهل على الخطيب أن يخلق ملامح الوجه كما يريد لان الصورة البشرية لا تمثل في حال الراحة المطلقة الا خطوطاً مستقيمة . فان أردت أن تظهر انتباهاً بدون تهيج فبارتفاع خطوط الوجه قليلا، وان أردت اظهار الرضى والسرور زادت الخطوط ارتفاعاً الى أن تبلغ الفرح الاقصى فترتفع الخطوط ارتفاعاً عظيما . وان أردت أن تظهر قلقاً أو تفكيراً فيكفي أن تخفض الخطوط قليلا ، أو خوفاً فتزيد خفضها وهكذا الى أن تمثل لك الألم والعذاب بانخفاضها انخفاضاً كاملا ومتى أضفت الى هذا الانقباض انقباضاً عصبياً فقد عبرت أحسن تعبير عن الغضب والاحتقار والبغض

كل هذه الحركات لا يحتاج الى الدلالة بها في آن واحد ولا يستفيد منها كل خطيب والعبرة في أن يكون مجموع الهيئة مطابقاً معنى الكلام موافقاً فكرة المتكلم قال لاروشفوكولد : البلاغة هي في الصوت والملامح مثلما هي في اختيار الكلام

أما العيون فهي أصدق ترجمان عن العواطف المختلفة الكامنة في كل انسان فان أردت التعبير عن الغيظ أو الدهش أو الاعجاب أو الخوف فتحتها

وان أردت التعبير عن القلق والتواضع والمسكنة قفلتها

أو الجزع والاشمئزاز والرياء وما شا كل أدرتها يمنة وشمالا

أو الدعاء والألم الشديد رفعتها الى السماء

أو اليأس والعار والتفكير والحيرة والخشوع والحياء خفضتها الى الارض

أو الشدة والاضطراب والرجاء وغيره أثبتها في مكانها

والظفر والفرح وما اليهما يكسبهما تألقاً وبريقاً كما ان الضعف والمرض يكسوهما جموداً كالزجاج

أما إطباق الجفون عند التكلم أو الشخوص بالنظر الى جهة واحدة فهذا ما يجب على كل متكلم أن يتحاشاه

وهناك حركات أخرى للرأس والكتف وغيرهما نكتفي بالاشارة اليها لانها تخص الممثل أكثر من الخطيب

هذه هي الشروط التي تجعل للمنبر ذاتاً معينة وكل خطيب حافظ عليها فقد استوفى حظه من البلاغة وكان له من التأثير أبعد مداه وأقصى مرماه . وقد وقعت على غير خطبة اشتهر قائلها بعلو الكعب في الخطابة فلم أجد لدى قراءتها ما يبرر تلك الشهرة مما يدلك ان الصوت وحسن الأداء وهيئة الخطيب هي من العوامل القوية التي تكفي أحياناً لتزيين المنابر وتعطي وثابها سلطاناً على القلوب

ولابد قبل الختام من التنبيه الى اللباس وضرورة الاهتمام به لان

جمال الهندام يؤثر حتى في نفس اللابس ولهذا تجد للافرنج عناية خاصة به ولا يتسامح أحد منهم في اهماله . وقد رأينا تتميما للفائدة أن نورد في آخر هذا الفصل بعض الرسوم التي تستعمل فيها الاشارات وتدل على المواقف التي تنقبض فيها اليـد أو تبسط وتطوى الاصابع أو تنشر بالنسبة الى الخطيب والموضوع وما يقتضيه البرهان أو النفي أو التعجب أو الوعيد أو الاستعطاف أو النفور وما شا كل

obeikandl.com

- ٦ -

خلاصة ما تقدم

كن في وقفتك بعيداً عن التكلف واجتنب الخروج عن المألوف في اشاراتك والقائك وحافظ ما أمكن على صوتك الطبيعي ولا تقلد غيرك من الخطباء والوعاظ والممثلين

وجنب في بداية الخطاب عن التزام نبرة واحدة وحركة واحدة لئلا تشبه التلميذ في تلاوة درسه لا الخطيب في فيض بلاغته

وأفرغ من نفسك في صوتك وحركاتك لتخلع على كلامك برد الحياة ولا تنس أن تنوع نبرة الصوت دون أن تخرج به عن الطور الطبيعي فتتعب سامعيك

وعلى الجملة فلتكن البساطة دليلك والطبيعة هاديك فترسل كلامك الى أعماق القلوب بلا صياح ولا جهد ولا تدجيل

واذا لم تساعدك الطبيعة فكنت محروماً جمال الطلعة أو اعتدال القامة فان لك ما يغطي هذه العيوب ويستر تلك النقائص بالتمرن على حسن الالقاء والعناية بالصوت وتربيته بالرياضة لتأخذ من النغمات العالية رنتها والوطيئة قوتها

واياك والاكثار من الاشارة أو الاتيان بحركات مستهجنة وجانب النحنحة والسعال وكل ما يدل على الضعف أو يسبب الملل قال الشاعر :

أعوذ بالله من الاهمال ومن كلال الضرب في المقال

ومن خطيب دائم السعال

obeikandl.com

الخطيب والممثل

obeikandl.com

obeikandl.com

— ١ —

ان بين الخطيب والممثل فرقاً واضحاً وبوناً نازحاً ذلك لأن الاول يحتاج إلى علم وإلهام قد يمكن الثاني الاستغناء عنهما . حسب الممثل أن يدرك غرض المؤلف ليقوم بأداء الواجب عليه خير قيام دون أن يكون للوحي دخل يذكر في تمثيله . لا أعني أن الممثل يجب أن يكون خلواً من كل علم بل أريد ان لهذا العلم وهذا الالهام عنده وجوهاً أخرى يصرفهما فيها . وهو على كل حال لا يرتبط بهما ارتباط الخطيب . ويرى القارىء في بعض هذا الفصل وما يليه مختصر ما وقفوا عليه في كتاب الاستاذ كركو « فن الكلام في الجمهور » مما يتعلق بهذا الموضوع

نعم من الممثلين مثل شكسبير وموليير قديماً وساشا كتري لعهدنا الحاضر من جمع بين الحالتين وكان العلم والوحي خير مرشد لهم فخلفوا أدوارهم على القرطاس واللعب معاً . مثل هؤلاء يفيدون سواهم ويخلعون على نهجهم في التمثيل مسحة خاصة لا تجدها في الآخرين إلا انهم قلائل لا يتجاوزن عدد الانامل

والغالب أن يكون الممثل كسائر الناس ثقافة ولكنه يستطيع أن يدخل في إهاب الذات الخيالية التي أوجدها المؤلف ويمتزج بها امتزاجاً سوياً . بل ترى بعض الممثلين دون سائر الناس في الاحساس والشعور وهم على الرغم من ذلك يجيدون تمثيل العواطف والاهواء الغريبة عنهم وكم من النساء من هن في حياتهن البيتية والاجتماعية أبعد خلق الله عن التأثر وعن كل فكرة للحب والتضحية وتراهن على اللعب يقمن بتمثيل أدوار الحب والتضحية أحسن تمثيل

هذا التناقض لا تجده في الخطيب فان جهد الممثل كما بينا هو أن

يصور ما يريد المؤلف دون زيادة ولا نقصان والبارع من وصل في التصوير الى أبعد غاية وأما الخطيب فهو لا ينفك عن التوليد حتى في اثناء الكلام وله مطلق التصرف في القلب والابدال والايجاز والاطناب حسب الاحوال

المجال الذي يتحرك فيه الممثل هو عالم الصور والخطوط ومجال الخطيب عالم الافكار والمعاني ومهما يكن من ثقافة الممثل والهامه فلا شأن لها في اضافة شيء الى الذات الخيالية التي خلقها المؤلف ورسم حدودها ولا حق له أن يجري على لسان هذه الذات كلة لم يرد المؤلف أن يقولها

قد يستطيع الممثل أن يتصور طريقة جديدة لتمثيل أبطال سوفوكل وشكسبير وموليير وهيكو غير التي عرفناها وألفناها ولكنه لا يكون في ذلك على وفاق والرأي العام

إذن مجال الممثل هو الخيال والصور والحركات ونبرات الصوت المختلفة وهي أمور يحتاج اليها الخطيب ولكنها ليست كل ما يحتاج اليه فان غاية الخطيب هي الالفاظ والمعاني التي تتزاحم في خاطره ويجيش بها صدره فيقذفها على لسانه وهي تتطلب حركات واشارات مختلفة غير أنه لا يضطر الى تأديتها بأمانة الممثل ودقته وجل ما يتحتم عليه هو أن يصور أفكاره ويعبر عنها على وجه لا يضايق السامعين ولا يزعجهم بل يشعر كل من حضر أنه أمام خطيب لا ممثل ، وهذا الشعور من جانب الناس هو الذي يشد عرى الالفة بين الخطيب وسامعيه فيندفعون معه في الطريق التي يشقها لهم فلا يكاد المعنى أو العاطفة تنحدر من شفتيه حتى يكون قد تلقفها سمعهم وجنانهم

ربما كان هذا هو السبب في أن يتحاشى الخطيب أن يظهر سهولة عظيمة جداً في كلامه لأنه اذا تكلم بدون جهد ظاهر ومن غير أن ترتسم على محياه تلك السمات الدالة على التفكير والتعب والتأمل فكأنه منقطع عما يقول فيحمل السامع على الظن أنه لا يتكلم باخلاص وشعور بل يلقي درساً استظهره أو يمثل دوراً من الادوار وهو مما يضعف التأثير وينزل بالخطابة عن غايتها

فعلى الخطيب أن يظهر لسامعيه أنه هو نفسه مولد أفكاره فيحس هؤلاء انهم أمام رجل يقول ويفعل ويبرهن ويحلل وان هناك مسألة عقلية يشتبكون معه فيها وهي ليست من خصائص الممثلين

obeikandl.com

الخطيب والشاعر

obeikandl.com

obeikandl.com

إن سرعة البداهة وقوة التصور وجيشان الخاطر وكل ما يمتاز به الشعراء موجود عند الخطباء ومن الصعب التفريق بين الاثنين فكأن القوة العقلية الواحدة باختلاف وجهتها وتباين أسبابها قد أنتجت عند بعض النوابغ تارة بلاغة القلم وطوراً بلاغة اللسان

لا ريب ان اللورد بيرون الشاعر الانكليزي المشهور عندما كان يطوف بجواده فوق شواطىء الليدو وينشد في الفضاء أشعاره الغريبة السامية ويلقي من حوله على الكائنات نظر السيد المعتز بمحتده المباهي بشبابه المفاخر بجمال طلعته ولمعان نبوغه وما أعطاه الله من واسع السلطان في مملكة الهوى ، مخضعاً لدى قدميه الفلاحة الحائرة والسيدة المتدللة ، منتصراً على مطامع الرذيلة ومخاوف الفضيلة ، لا ريب ان ذلك الامير لم يكن حينئذ شاعراً فقط بل كانت عواطفه الثائرة تتدفق من فؤاد خطيب فترتدي حلة الشعر بعد أن تفرغ في قالب خطابي بما فيها من غزارة وخيال وتصور خلاب

واذا نظرت فيما كتب هيكو أو نظم ظهر لك انه لم يكن يتخذ غير لغة الخطابة كأنما هو يتمرن على الدور السياسي الذي كان مخبأ له في طيات الزمان

وكذلك لامارتين فقد حرك أوتار قيثارته على منبر السياسة فأفلح خطيباً مثلما أفلح شاعراً

وكما كان بيرون الشاعر خطيباً كان جورس الخطيب شاعراً وقد روى مؤرخوه انه وهو في العشرين كان يتمشى كالملهم على شواطىء الكارون مردداً في الفضاء نثره الجميل . وله في كتابه « حقيقة العالم

المحسوس » صفحات شعرية خالصة كانه تحت وميض الالهام وبين عوالم الاحلام يسائل الوجود من كل نواحيه وينحني نحو الارض واضعاً أذنيه عليها مصغياً بروحه اليها كمن يجس أو يبحث عن نبض العالم

ومثل جورس كلما نصو فهو في كتابته وخطابته شاعر . لما اشتدت الازمة السياسية بين فرنسا والمانيا وانفرجت مسافة الخلف في حادثة اغادير ذهب جورس الى برلين ليخطب في زملائه الاشتراكيين فأبت الحكومة الالمانية عليه الكلام وأرجعته من حيث أتى . وكان كلما نصو يومئذ يحرر في جريدة الفجر فكتب فيها قطعة خالدة من النثر الشعري نورد للقارىء ما يحضر للذهن من مطلعها

« ان منع الكلام عن جورس يعرض المسيو بيلو ذلك الستار الذي يقوم من ورائه غليوم الثاني الى سهام الانتقاد المر . ما الفائدة أن يرث الانسان أعظم سلطة عسكرية في العالم وأن يمشي في زرد الحديد ويستل سيف الله الذي لا يفل ويتغنى بالنار والبارود ويملأ الآفاق وعيداً اذا كان يخاف من رجل اعزل سلاحه الكلام . . . يالها من شهادة ساطعة لعظمة الفكر . . . »

والمطلع على حالة السياسة لذلك العهد وما كان عليه غليوم من الحدة والخيلاء يدرك ما في هذه الاسطر القليلة من البلاغة

والامثلة كثيرة على وجود العاطفة الشعرية بقوة وغزارة عند الخطباء غير انها ليست واجبة الوجود فكما ان في المصورين من لم يبلغ شأو ليونارد ده فنسي فمن الخطباء من لا يعرف هذا الغليان ويستطيع بكلمة او صورة او صوت ان يحرك العواطف ويثير الاشجان . هكذا كان والدك روسو احد زعماء الفرنسيين في العصر الغابر القائل في احدى خطبه هذه الكلمة المأثورة : يجب على المالك ان يعمل وعلى العامل ان يملك

وفي العرب كثير من الخطباء الشعراء أو الشعراء الخطباء وقد ذكر الجاحظ فئة غير قليلة منهم نقتصر هنا على ذكر بعضهم مثل قس بن ساعدة الايادي والطرماح والكميت وغيره . ومن هؤلاء بشار الاعمى وكان شاعراً راجزاً سجاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج . وكلثوم بن عمر وهو القائل :

اني امرؤ هدم الاقتار مأثرتي ... واجتاح ما بنت الايام من خطري
أيام عمرو بن كلثوم يسوده ... حيّا ربيعة والافناء من مضر
أرومة عطلتني من مكارمها ... كالقوس عطلها الرامي من الوتر

ومن الشعراء الخطباء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار سهل بن هرون الملقب بزرجمهر الاسلام صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كليلة ودمنة

ومنهم أعشى بن شيبان وهو القائل :

ولا أنا في أمري ولا في خليقتي ... بمهتضم حقي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي من شر ما جنى ... ولا خائف مولاي من شر ما أجني
وفضلني في الشعر والقول انني ... أقول بما أهوى وأعرف ما أعني

ومن بواعث الاسف ان لا اجد سبيلا الى ايراد امثلة من خطب هؤلاء القوم ولعلي اوفق الى شيء من هذا في آخر الكتاب

ومن أبلغ الشعر الخطابي قصيدة عفيرة بنت عفان وكان بنو طسم قد انتهكوا حرمتها فقالت :

أيجمل أن يؤتى الى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد النمل
أيجمل تمشي في الدماء فتاتكم ... عشية زفت في النساء الى بعل

فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم ثوب العروس فانما ... خلقتم لاثواب العروس وللغسل
فلو اننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم ... وكونوا كنار شب بالحطب الجزل
والا فخلوا الدار ثم تحملوا ... الى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللموت خير من مقام على أذى ... وللهزل خير من مقام على ثكل
فدبوا اليهم بالصوارم والقنا ... وكل حسام محدث العهد بالصقل
ولا تجزعوا للحرب قومي فانها ... تقوم بأقوام كرام على رجل
فيهلك فيها كل وغل مواكل ... ويسلم فيها ذو الجلادة والفضل

الخطيب والخطباء

obeikandl.com

obeikandl.com

- ١ -

قلنا فيما مر إن المطالعة لازمة للخطيب لتوسيع دائرة ثقافته ونزيد الآن أن هذه المطالعة يجب أن يكون أكثرها في كتب الخطباء السابقين والمعاصرين . وعلى الخطيب أن يسمع ويرى كيف يخطب سواه سواء أكان من أشياعه أم أضداده ثم يشرح لنفسه ويحلل ما سمع محاولا أن يدرك السبب الذي من أجله نال هذا الخطاب استحساناً أو استهجاناً وما لذلك من صلة بالبيئة أو الرجل أو الخطاب عينه من حيث المعنى أو التركيب أو الاسلوب أو الأداء . وما فيه من اسهاب أو اقتضاب وهزل أو جد وغير ذلك مما يدخل تحت هذه المعاني أو يشترك فيها

ان للخطيب ولا سيما النائب والمحامي أضداداً ومنافسين والاضداد هم بين الجمهور وليس من الصعب أن يتغلب عليهم بالاقناع أما المنافسون فمن العبث أن يحلم باقناعهم وقد قال أحد نواب الفرنسيس : « أتى عليّ أربعون عاماً وأنا أسمع الخطباء فوجدت منهم من غير وجهة تصويتي ولكن لم أجد من غير رأيي » . ويمكننا قلب الجملة وعكس الآية دون أن نسيء الى الحقيقة فان من الخطب أيضاً ما يغير الرأي ولا يغير التصويت

وليس بعجيب أن يصعب على الخطيب اقناع منافسيه فكل يريد أن يكون لواء النصر معقوداً له لان الخطيب السياسي رجل عمومي وهو في أكثر الاحيان يعبر عن رأي حزبه فتراه مضطراً الى الثبات في موقفه حتى النهاية لا يزعزعه كلام الخصم مهما يكن لئلا يرمى بالخيانة والخروج على الحزب

وقد يحدث ان أحدهم يرى الحق في جانب خصمه فيبقى متشبثاً برأيه

لان هناك مفاجآت غريبة فكم من برهان يبدو ناصعاً ثم بعد تقليبه على وجوهه يتحقق بطلانه . وهذه المفاجآت هي التي تقضي على الخطيب بعدم الاستسلام لبلاغة خصمه بل تجعله ثابتاً في موقفه ولا سيما لانه ليس حراً بل عبد الموضوع الذي يدافع عنه فيجب أن يمضي فيه الى النهاية

وبعد أن يقوم الخطيب بالواجب عليه من الدفاع يستطيع أن يخلو الى نفسه ويراجع آراءه ويقابل بين مركزه ومركز حزبه ويعتمد ما يوحيه اليه الضمير الذي هو أسمى قاض وأشرف حكم

على انه لا يتعذر على الخطيب ولا سيما المحامي بما تهيئه البلاغة من وسائل التعبير أن يتخذ لغة لا يرتهن بها الا بقدر ولا تنال من شرفه وحسن احدوثته فان لم يستطع مثلا أن يقول الحق الحق اقول لكم فهو قادر على تحريف العبارة كأن يقول مثلا موكلي يقول لكم كيت وكيت ولا يعزب على القاضي ما وراء هذا التركيب من تنصل خفي أو محاذرة تدفع اليها الذمة الطاهرة دون أن تضعف من أثر مقاله

فكاهة : كان اثنان من عظماء المحامين في فرنسا يسمعان مرافعة زميلهم فكان يأتي في عرض كلامه بأدله قاطعة وحجج دامغة وكان أحد الاثنين خصما في القضية وعليه أن يرد على هذه المرافعة ويدفع هذه الادلة والحجج فكان رفيقه كلما سمع شيئاً اعجب به في المرافعة يميل نحوه قائلا هذا صحيح ولا اخالك قادراً أن ترد عليه فيكتفي هذا بهز الرأس كأنه يؤيد كلام صاحبه الى ان قال له هذا الصاحب اراك تشاركني في كل ما اظهره من صواب هذه المرافعة فما عساك ان تقول بعد هذا وقد اقتنعت منذ الآن فأجابه كلا يا صاح لم اقتنع ابداً ولكني اعلم ما لك من النفوذ الادبي عند القضاة واعرف مبلغ احترامهم لآرائك واراهم الآن ينظرون الينا فاذا عارضتك ظنوا بيننا خلافاً تكون نتيجته خدمة لخصمي فأنا اظهر الموافقة على كل ما تقول ليطمئنوا بعدها الى كلامي ومعارضتي فلا اخسر من قوة دفاعي شيئاً

- ٢ -

هنا تظهر بوجه خاص مزية الخطيب من حيث الهدوء والصبر والحلم فيكون كالملاكم يتلقى ضربات خصمه وهو ثابت الجنان لا يتزعزع عن موقفه مهما يطلق عليه منافسه من قنابل الغضب او يكشر له عن نواجذ الشر وسوء النية

لا اقول انه لا يحتاج أحياناً ان يظهر الغضب ويخرج عن طور السكينة لأن التظاهر بالغضب والحدة نوع من الحجاج المقنع ولكن فليكن غضبه خطابياً كما ذكرنا قبلا

ومهما يكن الخطيب عظيما مشهوراً فان آداب المهنة تقضي عليه أن يكون واسع الصدر كثير الدعة واللطف والتودد نحو زملائه ومنافسيه فلا يتعذر عليه ان يجعل كلامه شديداً وانتقاده قارصاً دون ان يمس كرامة احد وهذا ايضاً من دلائل المقدرة التي يتصف بها الخطيب البليغ

والمنافسة الحقيقية التي تدفع الخطيب الى الاجهاز على خصمه وتفنيد مزاعمه بكل ما أوتي من شدة عارضة وفصاحة بيان لا تكون الا في المسائل السياسية والقضائية وأما في غير ذلك كالحفلات الادبية والمناظرات العلمية وسواها فالواجب يقضي بالتضامن بين الخطباء حتى اذا عرض للواحد ما يفسد عليه موقفه أو لا يترك لكلامه وقعاً حسناً كان للآتي بعده مجال لاصلاح هذا الفساد بالثناء على الخطيب السابق والاشارة بمزاياه مما يساعد على ازالة سيء الأثر دون ان يحس الحضور بهذه المناورة الولائية لان للجمع عقلية تختلف عن عقلية الفرد وحكم الجماعة في مثل هذه الحفلات مقيد بحوادث الساعة والجمهور مستعد أبداً للحلم والمعذرة والرضى

obeikandl.com

اصلاح خطأ

في شرح الصور

الصفحة	خطأ	صواب
١ – ٤٨	رواية الدموع والحب	رواية الخداع والحب
١ – ٤٨	لو أن الدستور جسم قائم	لو بدا الدستور جسماً قائماً
٢ – ٤٨	تحكم يا الهي	تحكم أيها الألم
٤ – ٤٨	سقط هذا البيت تحت الرسم الاول :	
	واسترجعي تلك اللحاظ فلم يعد	
	لسهامها في مهجتي من موضع	
	(رواية الخداع والحب)	
٤ – ٤٨	كنا رجلا	كنا رجالا
٥ – ٤٨	سقطت هذه العبارة تحت الرسم الاخير وبعد بيت المتنبي :	
	« ان أكبر الحسنات التي يتمتع بها العالم لم تصدر عن أهل الغنى . . ولكنها خارجة من أكواخ بلا سقوف ، وبيوت سوّدها الدخان ،وأيد لم يضرها الصوم »	
	(من خطاب للدكتور فياض)	
٦ – ٤٨	نتملى أمانينا	نتملى من أمانينا
٧ – ٤٨	اذا كنت بيننا نبياً لاسمح الله	اذا كنت بيننا لاسمح الله
٧ – ٤٨	غير سيفه فعصاك	غير سيفه ليعيش فعصاك
٨ – ٤٨	حير ألباني فقالوا عصبي	حير الناس فقالوا عصبي

obeikandi.com

obeikandl.com

الخطيب على المنبر

يرى القارىء على هذه الصفحات صوراً لمواقف خطابية مختلفة للمؤلف وقد راعى فيها الموقف والاشارة كما كتب تحت كل صورة العبارة المناسبة لموقفها

انا لا أدينك يالهمي انما
لم تقض الدنيا شرائعها معي؟
ولماذا السموات دعها ودعني
أتولى تعذيبها بيدي
(رواية الدموع والحب)

لو أن الدستور جسما
لرأيتم رسماً فوق رسم
(عيد الدستور العثماني)

لحكم يا ألهي في نفسي
فقد وضعتها بين يديك
وحملتها وقفاً عليك
(من خطاب الالم للدكتور
فياض)

فلتبارك الى الابد أيها
الرجل العظيم
(تأبين كرنيليوه ندك
للدكتور فياض)

obeikandl.com

غير دين الحب لا دين لنا
نحن في البؤس سواء والنعم
(من قصيدة الدستور للدكتور
فياض)

حذار يا قوم حذار
فقد تأتي ساعة تسقط بها
كل هذه الحواجز
(من خطاب للدكتور
فياض)

كفى كفى شاهد
سجناً مخيفاً مظلماً
(أديب اسحاق)

أنا ابن الشمس
فكونوا أبناء الظلمات

أبعد هذا تعجبون
ان سميت هذا اليوم
عيداً قومياً
(من خطاب للدكتور
فياض)

الا اذا كنا رجلا وليس فينا دم الرجال

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
(المتنبي)

يا ليل قف فحرام أن
تطير بنا
من قبل ان تتملى أمانينا
(تعريب البحيرة
للدكتور فياض)

تلك ساعة العجب يو
ترون ان بين عشية وضحاها
قد نبتت في هـذه النعاج
أنياب الذئاب
(من خطاب للدكتور فياض)

واذا كنت بيننا نبيا
لا سمح الله كعيسو عندما
حرمه أبوه من ندى السماء
ودسم الارض ولم يبق له
غير سيفه فعصاك سيفك
بعصا الرعاية تسود
وعصا السيادة ترعى
(من خطاب يوم
انتخاب مطران
بيروت للدكتور
فياض)

هنا تجسمت التعاسة
ولدت أجل أنواعها القبيحة
ب المرضى للدكتور فياض)

فعلمت ان الحب وحده
نزارة الوجود يلهب القرائح
كما يلهب الخدود
(خطاب المرأة والشعر
للدكتور فياض)

وخفوق القلب داء مزعج
حير البابي فقالوا : عصبي
زعموا الطب عليه قدراً
وأنا أدرى فقد جربت بي
(خطاب القلب البشر
للدكتور فياض)

الخطيب والجمهور

obeikandl.com

ان بين الخطيب والجمهور صلة نسب وقرابة ولكنها ليست متينة الأسباب في كل حين وهذا ما يجعل موقف الخطيب حرجاً فان الجمهور مؤلف من طبقات مختلفة وفيه العالم والأمي والقنوع اللين العريكة والعنيد الصلب الشكيمة فاذا كان الخطيب ممن ألفوا المنابر واعتادوا على تلك الوجوه الشاخصة اليهم والعيون المحدقة بهم فقد وجد السبيل ممهداً أمامه وكان فوزه أكيداً . واذا كان على خلاف ذلك أو هو يخطب للمرة الأولى فقد عز مطلبه ووعرت طريقه وكان من الواجب قبل كل أمر أن يستميل الحضور اليه وأن يهيىء نفسه لقبول ما قد يصدر عنهم من ضجة أو ضحك أو مقاطعة أو غير ذلك ولا سيما اذا كان في الحفل كثير من العامة كما يحدث في الاجتماعات السياسية أيام الانتخابات وهذا أمر قليل الوقوع عندنا لعدم توافر الاسباب الداعية اليه

وربما ساء الخطيب قلة الاقبال عليه وعدم امتلاء النادي بالسامعين فعليه أن يدافع هذا الاثر ويتغلب على غيظه ويلقي خطبته بكل ما أوتي من حماسة حتى اذا خرج الناس معجبين بما قال كان لخطابه صدى جميل في المحافل والاندية لا يلبث معه أن يتغير اعتقاد الناس فيه فيأسف من قصر عن الحضور ويعاهد النفس ألا يدع فرصة تفوته فيما بعد لسماع هذا الخطيب

ومثل ذلك إذا كان السواد الاعظم من عامة الناس الذين لم تسمح لهم أعمال الحياة ومطالب الجهاد أن يتوسعوا في الثقافة فلا يكونن هذا مثبطاً له لانه لا يشق عليه أن يستميلهم ويملك عليهم نفوسهم ولو لم يعوا كل ما يقول . فان السامع الامي كالفقير الذي يعرف أنه لا يستطيع

أن يلبس الخز والديباج ويروقه مع ذلك مرأى هذا الزهو وربما حصل عليه بالتصور فهو أي السامع يدرك أن في كلام الخطيب ما يسمو عن مداركه أحياناً ولكن يسره أن يسمع ويرى وقد ترضيه من الخطيب بعض الظواهر أو الحركات فتلقي ستاراً على جهله ويمحو من ذهنه اثر العجز الذي هو فيه فيخرج مسروراً مسحوراً لان حكم الجماعات يكون عادة حسب الاهواء والشهوات والتأثيرات النفسانية

وقد يقف خطيبان أو أكثر في ناد فيأتي الواحد بأبلغ ما يمكن ويلم بموضوعه من كل أطرافه ولا يترك شاردة الا قيدها ويقول الآخر كلاماً سطحياً لا يدل على تعمق في الدرس ولا اجتهاد في البحث ولكنه يأتي ببعض النكات المستظرفة فينال من الاستحسان والتصفيق أضعاف ما نال الاول إلا أن هذا الفوز عارض لا يلبث أن يزول عند ما تنقشع غيمة التأثير الخطابي وينشر قول هذا وذاك ويطلع القراء على خفواهما ويسهل لكل في خلوته أن يبدي حكماً صحيحاً بعيداً عن التأثيرات الخارجية

ولا يجوز للخطيب أن يحتقر العامة لان غايته في الغالب هي التهذيب والارشاد والاصلاح ولا يصل اليها بالازدراء بسامعيه بل هو بهذا الاحتقار يخولهم الحق أن يحتقروه . وأول ما يجب عليه في هذه الاحوال أن يتعرف إلى أهوائهم ويجاريهم في مشاربهم أحياناً فقد لا تكون بعيدة عن الصواب وان يصغي الى كلامهم فالحكمة قد تأتي من فم الجاهل وأن يتبع المثل الاعلى الذي يريد أن يرسمه للناس فلا يأنف من عرضه عليهم ولا ييأس من تقريبهم منه

— ٢ —

من العقبات التي تعترض الخطيب وهو على المنبر أن لا يفهمه كل انسان فتقوم المعارضة من كل ناحية لان هذا الجمهور المختلف الطبقات والامزجة والتربية والغاية يسري فيه ألف مذهب وألف عقيدة وألف وهم وعلى الخطيب أن يؤلف بين هذه القوى المتباينة ليقودها في طريقه ولا يتمنه ذلك الا بالصبر والحلم وطول الاناة والتسامح . وهو يسعى الى ارضاء هذا الجمهور ولكن لا من طريق الاكراه الذي يفضي الى الفشل فاذا دافع عن رأيه فلا يكون دفاعه بمحاولة هدم مذهب سواه فان لكل رأي مظهراً من مظاهر الحقيقة ولم نسمع أبداً أن كل الناس خرجوا من حفلة خطابية راضين مقتنعين . وقد كان والدك روسو يقول عن نفسه: « أنا أطلب من كلامي نجاحاً لا انتصاراً » وهذا ما يجب على كل خطيب أو مناظر أن يضعه نصب عينيه وخطاب انطونيوس في مقتل قيصر أبلغ مثال يقدم على ذلك

وقد تكون المعارضة عن اخلاص أو سوء فهم أو حب بالظهور فاذا أدرك الخطيب ذلك عرف أن يعطي لكل مقام مقالا ولكل جواب حالا

أما المقاطعة فلا يجب أن تخرجه عن جادة الموضوع لأنه لا يخطب لواحد بل لجماعة وليس في كلامه حتى النهاية الا اذا كاد الذهن حاضر البديهة فيرد على من قاطعه بكلمة ثم يعود الى موضوعه . واذا لم يوفق الى سرعة الرد فليمر بالاعتراض مر الكرام ذلك خير من أن يقول قولا لامعنى له أو فيه شتيمة وسباب

لما اغتصب عمال السكة الحديدية في فرنسا وعددهم يربو على ١٥٠ الفاً لجأ الوزير بريان الى اصدار أمر بالتعبئة العامة فكانت الواسطة الوحيدة للتغلب على الثورة والضرب على أيدي المغتصبين بدون أن تسفك قطرة دم . وكان ذلك في اثناء عطلة البرلمان فلما حان انعقاد الجلسة الاولى للدورة الجديدة كانت الأفكار في غليان والخواطر في هيجان والنواب تتحفز للوثوب معترضة على هذا العمل الاستبدادي في الظاهر . وجاء بريان لتقديم الحساب فعلت الأصوات من كل جانب: «ليسقط الدكتاتور ليسقط الكابورال» فوقف في مكانه جامداً الى أن أتيح له فرصة ليرفع صوته فصاح بهم : «دكتاتور ؟ مسكين أنا . مالكم أيها السادة إلا أن تقولوا كلمة أو تبدوا إشارة فأترك هذا المنبر بلا أسف وأعود إلى مكاني في صفوفكم خادماً بسيطاً لهذا الوطن » كلمات وجيزة ولكنها قوية بمعناها ومطابقتها الحال فجاءت كالماء على الجمر فهمدت حدة الثائرين وخمدت ثورة الصائحين وأمكن بريان أن ينطلق في حديثه مبرراً عمله فاذا بالغضب يتحول رضى والجلبة تنقلب سكوتاً والنفور يعود اطمئناناً وبعد أن كان هدفاً لسهام الناقدين نزل عن المنبر بين الهتاف والتصفيق ومصافحة المهنئين

ولكن ليس كل الخطباء مثل بريان ولم يؤت سرعة البداهة كل انسان وكم من أصحاب العقول الراجحة من يفتقر اليها فقد كان جاك روسو يقول عن نفسه: «لم أستطع عمري أن أؤتي جواباً موفقا الا ربع ساعة بعد الوقت الملائم»

والمقاطعة في حادثة بريان وقعت قبل أن يتكلم ولا أدري هل تكون أشد وقعاً لو جاءت في عرض الخطاب فكانت كالصخر الذي يلقى في مصب السيل فتنحرف به حيناً عن قصد السبيل. على كل حال ليس على الخطيب من جناح اذا لم يحضره الرد فوراً ولا يلام إلا إذا حاول الجواب فقال ما لا معنى له ولا فائدة منه. مثلا قد يسمع الخطيب مقاطعاً يقول: هذا كذب فيجيبه أنت الكاذب لا أنا مثل هذا الجواب أفضل السكوت عليه الف مرة

ومن أجمل ما يذكر من المقاطعة عن خطباء العرب ما حكاه صاحب العقد الفريد عن زياد عن مالك بن أنس قال: «خطب ابو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اتقوا الله فقام اليه رجل من عرض الناس فقال: أذكرك الذي ذكرتنا به فأجابه أبو جعفر بلا فكر ولا روية: سمعاً سمعاً لمن ذكر بالله وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه فتأخذني العزة بالاثم لقد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بها لو كانت وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفينا انبثت» ثم رجع الى مكانه في الخطابة

ان السكوت والتوقف عن الكلام حيناً خير من الجواب على المقاطعة اذا لم تأت بمثل هذه البلاغة ولا سيما اذا كان المقصود منها

الاضرار بالخطيب والتشفي . وهذا السكوت الدال على عدم الاكتراث بالمقاطع يعد مقدرة وترفعاً محموداً

وأما اذا كانت المقاطعة للاستفادة والتعمق في البحث فقد يستطيع الخطيب مواصلة حديثه اكتساباً للوقت مع التفكير في الرد في آن واحد الى أن يحضره الجواب اللائق الموافق وهذا من وراء الغاية

ويستحسن بالخطيب حينما يخلو الى نفسه أن يعيد في ذهنه ما جرى في الحفلة وليتذكر موقف الجمهور والمقاطعين وينظر فيما اذا كان قد أحسن التصرف ازاء هؤلاء وأولئك ففي هذا التفكير درس وعبرة

والخلاصة على الخطيب لدى المقاطعة اما أن يرسل جوابه كالسهم اذا ساعده المزاج والخاطر واما أن لا يعبأ بها خير من أن يتمتم كلاماً لا هو جواب ولا تتمة خطاب

— ٤ —

بقي أن نقول كلمة عن التصفيق فلا يجب أن يغتر به الخطيب لانه لا يدل دائماً على الاستحسان بل كثيراً ما يأتي تأدباً أو عادة أو دفعاً للملل وقد يكون لان الكلام مما يضحك أو اشفاقاً على الخطيب من التعب فكأنه فرصة للراحة . وقد يكون أيضاً لاجل اسكات الخطيب بعد أن أتعبهم بالكلام الذي لا طائل تحته

وكما يصفق النظارة أحياناً للممثل اكراماً للمؤلف لا له كذلك يصفق للخطيب لا لأجل الخطاب بل لنكتة جاءت موافقة لروح السامع أو لاسم عظيم ذكره أو غير ذلك . بل لو لم يكن في التصفيق غير الاستحسان لما كفى ذلك للدلالة على جمال الخطبة ولو أعطي الخطيب أن يتغلغل في القوم ويصغي الى همسهم لعاد دهشاً من كثرة ما يسمع من الطعن أو الانتقاد حتى من أقرب أصدقائه وأخلص المعجبين به

وعندي أن مقدرة الخطيب ليست في اثارة التصفيق بقدر ما هي في استجلاب السكوت ، السكوت التام الدال على الاصغاء والخشوع وأن عيون الجمهور شاخصة الى شفتيه وعقولهم متصلة بفكره وقلوبهم خافقة على صوته . وأنفاسهم محبوسة على كلماته . ذلك لان الخطيب يستولي على النفوس أكثر مما يستولي عليها المغني المطرب ولانه ساعة القول يخلق ما في نفسه ويقويه أو يضعفه حسبما يشاء فيسرع ويتمهل ويعلو ويهبط على وزن دقات القلوب . تلك هي مقدرة الخطيب التي تتجلى فيه في ساعة من الوحي مباركة

وبعد الختام فليصفق الناس ما شاءوا للتعبير عن اعجابهم واستسلامهم أما الخطيب فقد سبقهم الى ادراك هذا الاعجاب منهم وشعر به قبلهم

أما المكاء أي الصفير فهو علامة الاستهجان عادة ولكن الكثير من العامة في الشرق يجهلون معناه فيستعملونه في مكان تصدية الايدي فيختلط الحابل بالنابل ولا تعرف المراد منه تماماً

obeikandl.com

تهيئة الخطاب

obeikandl.com

obeikandl.com

— ١ —

من الخطباء من يفكر في موضوعه والقلم بين أنامله فيخط على القرطاس كل ما يمر بالخاطر على أمل العود اليه عند التبييض لتنقيح الفاظه وتهذيب عباراته

ومنهم من يستعد وهو يتكلم بصوت عال كأنه يملي على الذاكرة ما تجود به القريحة حتى اذا جاء وقت الكتابة أعادت الذاكرة كلامه وتمثلت لديه الالفاظ والجمل التي فاه بها فيتخير منها ما يشاء للصياغة والتعبير

ومنهم من يستعد وهو صامت كانه يسمع صوته الباطن بدون أن تحمله تموجات الهواء الى أذنيه

ومنهم من يجمد في مجلسه أو يروح ويجيء حيناً ناطقاً وحيناً صامتاً

كل ذلك حسب مزاج الخطيب وحالة نفسه والغاية واحدة وهي اعانة الذاكرة وتمرينها بالتفكير والتبحر حتى اذا تجلى الموضوع في صورته الكاملة عمد الخطيب الى اختيار القالب الذي يريد أن يفرغه فيه

فاذا كان الخطيب ممن يستعدون وهم يكتبون فليس من الضروري أن يهتم كثيراً بالالفاظ اذا لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها لأن الاستعداد يكون في أول الأمر للمعاني دون الصورة والأحسن أن يمضي في كتابته بلا توقف وان خانته كلمة أو جملة جاوزها الى غيرها دون أن يضيع الوقت في البحث عنها

كذلك اذا كان استعداده بالتكلم لا الكتابة فان التوقف لدى كل كلمة لا تحضر في حينها أو تركيب لا يصيب مقره يقطع عليه مجرى أفكاره والافضل ان يعتبر نفسه كأنه يتكلم أمام جمهور فلا يتلجلج بل يواصل كلامه كما يجري على لسانه صواباً أو خطأ ومتى انتهى من هذا التمرين

وقعد الى الكتابة أعادت عليه الذاكرة ما سمعت وكان له متسع من الوقت للتفكير فيما فاته واحضار ما غاب عنه وتهذيب ما وقع عليه

وليس هذا مما يستهان به اذا أخذ على نفسه أن ينتبه الى مواضع الضعف في المعنى أو التعبير في سياق كلامه فان الذاكرة تحفظ ذلك وتعيده عليه لدى تبييض الخطاب . فكما يمكن المرء أن يقول في نفسه قبل أن ينام أريد أن أستيقظ ساعة كذا وتلبيه الذاكرة فتوقظه في الأجل المضروب، يمكن الخطيب في عرض كلامه عند الاستعداد أن يذكر ويقول هنا يجب التطويل أو الاختصار أو ابدال هذا اللفظ أو تلك الجملة فيبقى هذا الطلب كامنا في العقل الباطن الى أجله المسمى فلا يفوت الخطيب عند تبييض الخطاب أن ينتبه اليه

— ٢ —

قد لا يحتاج الخطيب الى كتابة خطبته بعد الاستعداد بل يكتفي بما يسمونه رؤوس اقلام ان كان ممن رزقوا ذهناً صافياً وذاكرة قوية ولكن الافضل ان يكتبها ليتعود على تهذيب عباراته وتنميقها وتنسيقها فلا يقع في التكرار الممل أو الضعف الشائن أو السهو المفسد

على كل حال لا ندحة له مهما تكن طريقته في تهيئة الخطاب من أن يتمرن على انتقاء الالفاظ الجميلة حتى تأتيه عفواً بلا جهد وتنساق اليه بلا تعب وهـذا التمرين يجهله الكثيرون ومداره ان يجرد الرجل من عقله قوة يضعها شبه حاجز بين الدماغ واللسان فتكون رقيباً على الفاظه كرقيب الجمارك تفحص كل كلة قبل أن تخلج بها شفتاه لتسمح بالمرور أولا تسمح وهكذا يتعود ان لا يلفظ الكلمة التي لا توافقه وهذا الضرب من التمرين يفيد كل انسان فقد تعودنا في حياتنا البيتية والاجتماعية أن نقول في كثير من الاحايين جملاً مجهزة لا تتبدل مما ضيق دائرة التعبير. ألا ترى اننا اذا أردنا مثلا ان نثني على خطاب نكتفي بالقول انه بليغ فكأننا في الواقع لم نقل ما يلزم لان هذه الصفة تنطبق على شتى الخطب وكان الاصح ان نذكر كل ما يمتاز به الخطاب ونوضح السبب الذي من اجله يستحق ان يوصف بالبلاغة . وكم من الناس رجالا ونساء يكتفون للحكم على الاشياء بمثل هذه الجمل العموميـة فيقولون هذا عظيم وهذا هائل وهذا عجيب وماشا كل كل ذلك اجتنابا للتعب وتخفيفاً للجهد في البحث عن الكلمات الموافقة التي لا تلبينا عادة وهي لو حققت قريبة المنال بقليل من هذا التمرين

جاء في العمدة لابن رشيق : العمل هو على جودة الالفاظ وحسن

لسباك وصحة التأليف . ألا ترى لو أن رجلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر وفي الاقدام بالاسد وفي المضاء بالسيف وفي العزم بالسيد وفي الحسن بالشمس فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قد اه : يعني انك اذا اكتفيت بالقول هذا الرجل كالأسد أو كالبحر أو ماشاكل فكأنك لم تقل شيئا

ومثل هذا ما ينظمه الشعراء من قصائد المدح والرثاء فان فيها من الاوصاف ما ينطبق على كل انسان وبالاحرى لا ينطبق على احد وقلما نجد بينها ماعليه طابع خاص فلا يستطاع نقله من موضعه بل هي تقريباً كالنقود المستعملة بين ايدي الناس ربيبة العادة والتقليد

هذا داء يجب معالجته والا افضى الى فقر اللغة ونزول اللسان عن ملكة الفصاحة وحسب الكاتب او الخطيب أن ينتبه اليه ليمرن نفسه تمريناً خاصاً يجعله في مأمن من الوقوع فيه ويفتح امامه أبواباً جديدة يدخل منها الى ميدان واسع يجول فيه القلم واللسان جولات لا تمر بحلم

— ٣ —

وبعد انتهاء الخطيب من ترتيب خطابه واستيفاء معانيه واختيار ألفاظه وتقسيمه حسب القواعد والاصول كما ذكرنا في الانشاء الخطابي يبقى عليه الرجوع الى المطلع ليتقنه بوجه خاص ويتفنن في مقدمته تفنناً مستحباً يأخذ بألباب السامعين ويعدها إعداداً حسناً للاصغاء اليه والتقاط ما ينثره على مسامعهم مما وقف على تحضيره وقته وعقله وقلبه .

ثم الى الختام فيمر عليه نظر المنتقد الصارم ولا يدع فيه أثراً للضعف أو اللبس بل يوفيه حقه من القوة والجلاء والبلاغة حتى يترك في الآذان صدى جميلا مستطيلا

والافضل له بعد ذلك أن يستظهر خطبته ليكون فعلها أوقع في النفوس ولا بد هنا من الفات القارىء الى أمر من الاهمية بمكان فان استظهار الخطبة لايقصد به القاؤها غيباً كما يلقي الطالب أمثولته المدرسية فان هذه الطريقة فضلا عن انها لا تجلب الاقناع ولا تجيد التأثير تقف حاجزاً دون تقدم الخطيب في فنه لانها لا تعوده على الاستفادة من موقفه ومن حالة السامعين وتأثرهم ليزيد أو ينقص من كلامه ويسهب أو يختصر في شرحه بل تجعله كالتلميذ أو الممثل لا كالخطيب . وكم من فرصة تعرض للمتكلم في القوم فتوحي اليه معاني جديدة هي بنت الساعة من تصفيق الناس أو هتافهم أو تململهم أو ضحكهم أو مقاطعتهم أو غير ذلك فاذا كان يلقي خطابه عن ظهر قلبه أي مقيداً نفسه بجمله المرصوفة لا يغير كلاماً ولا يبدل نظاماً فقد فاته الاستفادة من تلك الفرص التي قد تقال فيها جملة واحدة مرتجلة فتفعل فعل الخطاب بأسره

obeikandl.com

الارتجال

obeikandl.com

obeikandl.com

الارتجال في اللغة هو الكلام من غير تهيئة أو الابتداء به من غير فكر وقد كان أمراً طبيعياً ميسوراً للعرب قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فهو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام أو حين ان يمنح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة أو المناقلة فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ أو يحتاجوا الى تدارس وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولاقصد ولا تحفظ ولا طلب

أما اليوم فالارتجال نادر بل اذا حققت لم تجد لحقيقته أثرا لان الخطيب العصري لا يستطيع التكلم بما لا يعرف فاذا كان عارفاً موضوعه فالتهيئة حاصلة فعلا بما وعاه ذهنه بالدرس والمطالعة والاختبار

قد يراد بالارتجال تركيب الالفاظ وتنسيق الجمل وافراغ المعاني في قالب من التعبير يوافق مقتضى الحال وهذا أيضاً صعب على خطيب اليوم لاننا نتكلم عادة غير اللغة الفصحى التي نكتبها فنضطر بحكم الامر الى

إعمال الفكرة عند الخطابة واجهاد الذاكرة ولو قليلا وتوزيع قوة العقل بين النظر في الموضوع والعناية بالالفاظ في وقت واحد وهذا كاف لاضاعة رونق الخطاب والتقصير في اجادة الالقاء . قال الدكتور تولوز وهو من علماء النفس والاخلاق : ان الارتجال آفة الخطابة لانه يلقي المعنى على عواهنه دون أن ينضج بالتفكير ، فكيف اذا أضفت الى ذلك الركاكة التي مني بها أكثر الناطقين بالضد لنسب الذي ذكرناه

ومن قرأ مشاهير الخطب التي قيلت ارتجالا وحفظت بالاختزال دهش لما فيها من الضعف والتناقض ولم تخف عليه عيوب الانشاء عند قراءتها على الرغم من وميض البلاغة الظاهر من خلال السطور .

أما اذا كان المقصود بالارتجال جملة قوية تأتي عرضاً في الخطاب رداً على اعتراض أو اسهاباً في البيان أو شرحاً لسؤال ففي وسع كل خطيب ولكن أن تقال خطبة كاملة من غير استعداد فلا يقصر الخطيب في مادته أو بيانه فهذا ما لا أظنه يتاح لكثيرين

انظر الى خطباء الاقدمين فانهم كانوا يهيئون خطبهم قبل القائها وهذا ما حفظها لنا لان الاختزال لم يكن معروفاً لذلك العهد . وقد كان شيشرون يهذب خطبه ويتمرن عليها قبل ان يلقيها وكان كانتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى ان الارتجال لا يتهيأ للمرء الا في أواخر عمره بعد ان يكون قد ذاق الامرين في تعلم صناعة الخطابة . وهذا بوسويه كان يكتب خطبه ومسوداتها لا تزال محفوظة ولما ظهرت الثورة الفرنسية اضطر القوم الى الارتجال في كل ناد وموقف ولكن ذلك لم يمنع ميرابو ان يكتب أكثر خطبه قبل القائها وكذلك روبسبير

وانظر الى خطباء اليوم فلا تجد فيهم من لا يعترف بالاستعداد قبل التكلم كالمحامي لابوري وهنري روبير وفيفياني وجورس وغيرهم ومما قاله هنري روبير « انا لا اعمل والقلم في يدي ولكني لا انقطع عن التفكير أينما وجدت ولا يزال دماغي في عمل مستديم فتتوارد الجمل على خاطري وأرددها في باطني » ولله در ابن المعتز حيث قال

والفكر قبل القول يؤمن زيغه شتان بين روية وبديهة

واذا اضطر احد هؤلاء الى الكلام عن غير استعداد كما كان يحدث في ندوة القضاء او النيابة فللاعتراض او دفع حجة او اقامة برهان او شرح حادث وهذا سهل لأنه لا يخرج عن موضوع الفه ودرسه وعالجه غير مرة بالقلم واللسان

ولا أدري وأيم الحق ما الفائدة من التكلم بدون سابق استعداد في حين أن الخطيب قادر أن يأخذ للامر أهبته وان يفرغ الطوق في إلباس موضوعه حلة انيقة فان كانت غايته المباهاة فقد أخطأ المرمى لأن ما يعرفه من الموضوع هو كما بينا ضرب من الاستعداد فضلا عن ذلك فانه من المستحيل أن تأتي عباراته برشاقة وانسجام وتنساق اليه بمثل النظام الذي يكون من وراء الاستعداد

ثم ان ظهور الخطيب بمظهر المرتجل الذي لم يستعد فيه ازدراء بالحاضرين واعتداد بالنفس يقرب من الدعوى الفارغة المذمومة فان هذا الجمع الذي أزعج نفسه وجاء لسماعه وربما كان فيه من أقبل من مكان سحيق غير مبال بالمشقة وبعد الشقة يستحق شيئاً من العناية والاكرام فلا يليق بالخطيب أن يقدم له إلا أحسن ما عنده

وهناك فئة تدعي الخطابة وقد يكون بينها من يحسنها ولكن عيبها التبجح أبداً بعدم الاستعداد كأنه مزية كبرى تشهد لهم بسرعة الخاطر وذلاقة اللسان ولا يفهمون ما في هذه الدعوى الباطلة من جلب الملام أحياناً والهزء دائماً

وقد ذكرنا رأي الدكتور تولوز في ان الارتجال آفة الخطابة لاستحالة التدقيق والتنميق ونضيف اليه أن فيه مجازفة كبيرة لأن الدخول في الموضوع قد يكون يسيراً ولكن الخروج منه عسير والمتكل على قدرته ليفرع المنبر مرتجلا هو كالمحارب الذي ينزل الى الميدان أعزل على أمل أن يستعمل سلاح عدوه أو كالقائد يهاجم خصمه وهو لم يرسم من قبل خطة الهجوم وكم من المرتجلين الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

ويرتجل الكلام وليس فيه سوى الهذيان من حشد[1] الخطيب

---

(١) الحشد اي الاستعداد

— ٢ —

لا أريد أن أدخل اليأس الى قلب القارىء الراغب بهذه الصناعة فالارتجال ممكن لقوي الارادة بعد أن تتوافر لديه الوسائل من سعة اضطلاع ومطاوعة قريحة وتصرف روية وحضور ذهن وامتلاك لناصية اللغة والذي يأمن العثار فيه هو المطبوع الحاذق الواثق بغزارة مادته ورباطة جأشه لأن الثقة بالنفس وحدها كافية لأن تنفي عنه كل خاطر يورث اللجلجة والتحنحة والانقطاع والبهر وما إلى ذلك

وهو وإن يكن أبعد منالا على المتكلمين بالعربية للاسباب التي أشرنا اليها من انفراج مسافة الخلف بين العامية والفصحى فلا يعد مستحيلا ولا سيما في مصر حيث الفطرة كفيلة به بما للمصريين من ألسنة ذلقة وألفاظ حسنة وعبارة جيدة تجعل العامية قريبة من الفصحى فلا تجفل الاسماع منها

وفي الارتجال تظهر مزية المطالعة التي ذكرناها في فصل سابق فاذا كان الخطيب ممن لم يتكلوا على بلاغتهم الفطرية بل اجتهد بتوفير رأس ماله والاكثار من محفوظه « فقد سهلت عليه مستوعرات النثر وذللت له صعاب المعاني وفاض على لسانه وقت الحاجة ما كمن من ذلك بين ضلوعه »

والحاجة في الارتجال تدعو اليها مفاجآت كثيرة ولا سيما اذا كان الخطيب ممن أحرزوا قسطاً وافراً من الشهرة فتتطاول الاعناق اليه أيان وجد ولا يجد مناصاً من تلبية الدعوة فبفضل الدرس الطويل وسابق الاجتهاد يستطيع الخروج من هـذا المأزق سليم الشهرة محفوظ الـكرامة

بل ان الاستعداد الـكامل وتهيئة الخطبة بألفاظها ومعانيها قد

لا يقي الخطيب من الذهول والنسيان فيقف على المنبر وقد غاب عنه كل ما أراد أن يقول فاذا كان قادراً على الارتجال فلا يعدم مخرجاً لطيفاً بل تأتيه النجدة من حيث لا يدري ويفيض لسانه بالفصاحة جائلا جولات طويلة دون أن يشعر السامع بأنه يقول غير ما أعده كتابة

وافضل الوسائل للتمرين على الخطابة والارتجال هو أن ينشأ في المدارس شبه مجامع علمية لعدد محدود من الطلبة فيطرح عليهم موضوع المناظرة في الجلسة ويجرب كل واحد أن يقول ما يحضره شارحاً أو معترضاً فان الالفة تمنع الكلفة وتشجع التلميذ على القول بين قوم هم أصدقاؤه وزملاؤه ومن رتبته سناً وعلماً فلا يعاب على خطأ ولا يؤاخذ بتقصير

وبعد المدرسة على طالب هذه الصناعة أن يتعود الكلام كل صباح ولو بضع دقائق وان لا يكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها بصوت جهوري

الرتج

obeikandl.com

obeikandl.com

يقال رتج الانسان يرتج رتجاً اذا استغلق عليه الكلام فلم يقدر عليه وهي آفة تصيب الخطيب والممثل على السواء .والسبب استعداد خاص مرجعه في الغالب علم الخطيب بصعوبة الموقف وخوفه من الفشل وتهيبه الجمهور المصغي اليه . ولاعلاقة للرتج بمنزلة الخطيب من البراعة والشهرة بل كلما عظم قدره وذاع ذكره وكان له نباهة في قومه كان أعلم من سواه بمصاعب الكلام ومبلغ ما ينتظره الناس منه وقد كان ولدك روسو لا يفارقه الخوف عند التكلم على الرغم من العادة والخبرة فكانت يداه لا تفارقان المنبر حتى آخر كلمة يلفظها لئلا يشعر بارتجافها

أعراض الرتج

يصيب العقل ضرب من الشلل تجمد به القريحة وتظلم الذاكرة فتتناول الانسان رعدة يرافقها شبه انحلال في العضل وتراخ في المفاصل ووهن في العزيمة ويتصبب العرق من جسمه ويأخذه دوار في الرأس وطنين في الأذن . وقد يبلغ هذا الطنين عند بعض الممثلين انه لايسمع ما يقول هو نفسه . وتسرع دقات القلب كأنه يحاول الخروج من الصدر وتعلو الوجه صفرة شديدة وتضطرب وظائف المعدة والأمعاء اضطراباً مزعجاً مؤلماً

وقد يأتي الرتج في منتصف الطريق أي بعد أن يكون الخطيب ابتدأ ابتداء حسناً واخذ ينطلق في خطابه بسهولة وتلاعب وانشراح . كالصاعد جبال الالب يقطع مسافات شاسعة ويجتاز عقبات كأداء دون جهد كبير واذا به لحادث تافه لا يذكر يحس دواراً قوياً فيضطر الى

الوقوف أو القعود وأحياناً لا يجد الراحة والطمأنينة الا بالاضطجاع على الثرى . هكذا تكون بداية الخطاب حسنة واصغاء الجمهور تاماً ثم تعرض حركة او اشارة من احد السامعين سواء أكانت استحساناً أم استهجاناً فتفسد الموقف على الخطيب فيجد نفسه قد تغير كل التغير وأسدل على بصره وبصيرته ستار من الظلام تضيع فيه كل حيلة

معالجته

تكون بتربية الارادة وأن يذكر الخطيب ان الرتج ليس عاراً واذا عد من لم يعرف الرتج عظيما فأعظم منه من عرفه وتغلب عليه . متى يضع الخطيب نصب عينيه هذه الحقيقة ويذكر ان السواد الاعظم ممن جاء ليسمعه انما جاء لاعتقاده انه يسمع شيئاً لا يعرفه أي انه يعتبر الخطيب أوسع منه علماً ولو في هذا الموضوع وحده وانه يحترم مقامه متى يذكر ذلك تهن الامور عليه فيجتهد أن يكون عند ظنهم فيه وهكذا يستطيع محاربة هذه الاعمال المنعكسة بالارتداد عليها بقوة الارادة .

ومن الأمثلة الجميلة على الجهد الذي في وسع الخطيب انفاقه لمكافحة هذه الآفة والانتصار عليها ما ذكره غامبتا عن نفسه قبل اعتلائه المنبر للمرة الاولى . قال في احدى رسائله الى أبيه : «يوم الخميس سأقف خطيباً لأول مرة واني لمنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر وقلبي يخفق لها ولكن لا عن خوف أو اضطراب ولن يكون لي في الحياة يوم اسعد من هذا اليوم » ان للخطوات الاولى في طريق المهنة بهجة خفية فيخال لك ان الارض تهتز تحت قدميك ويلم برأسك دوار يشبه السعادة ثم يأتي العقل

فيثبت من حولك كل شيء لتمشي نحو شواطىء المستقبل المجهول

لقد رأيت وسمعت في شهور ثلاثة كل ما اطلع فن المحاماة من كبير وصغير فالحق أقول لك بلا تيه أو خيلاء ان آمالي قد تضاعفت وثقتي تزايدت . كنت منذ ستة أشهر أرجف فرقاً لدى فكرة النضال مع هؤلاء أما الآن فقد غلبت الجسارة عليّ وما فاز باللذة غير الجسور »

وبما انه لا علاقة بين الرتج ومنزلة الخطيب كما قلنا فلا خطر منه بل ربما أفاد في بعض الاحوال بما يبعث في المرء من العزيمة لمضاعفة الجهد والبلوغ الى الغاية

obeikandl.com

جاء في العقد الفريد ان أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه فقال : « أيها الناس ان أول مركب صعب وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها وسيجعل الله بعد العسر يسرا ان شاء الله »

ولما قدم يزيد بن أبي سفيان الشام والياً عليها لأبي بكر خطب الناس فارتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فقال : « يا أهل الشام على الله أن يجعل بعد العسر يسراً وبعد عي بياناً وأنتم الى امام فاعل أحوج منكم الى امام قائل »

وصعد ثابت بن قطنة منبر سجستان فقال الحمد لله ثم أرتج عليه فنزل وهو يقول

فان لا أكن فيكم خطيباً فانني بسيفي اذا جد الوغى لخطيب

فقيل له لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي فحصر : « فقال أيها الناس اني كنت أعددت مقالا أقوم به فيكم فحجبت عنه فان الله يحول بين المرء وقلبه كما قال في كتابه وأنتم الى امام عدل أحوج منكم الى امام خطيب واني آمركم بما أمر الله به ورسوله وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله وأستغفر الله لي ولكم »

وصعد خالد بن عبد الله القسري المنبر فأرتج عليه فمكث ملياً لا يتكلم ثم تهيأ له الكلام فقال « أما بعد فان هذا الكلام يجيء أحياناً ويعزب أحياناً فيسمح عند مجيئه سببه ويعز عند عزوبه طلبه ولربما كوبر فأبى وعولج فنأى فالتأني لمجيئه خير من التعاطي لآبيه (أي لممتنعه) وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره وقد يرتج على

البليغ لسانه ويخلج من الجريء جنانه وسأعود فأقول ان شاء الله

وصعد ابو العنبس منبراً من منابر الطائف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فأرتج عليه فقال أتدرون ما أريد أن أقول لكم قالوا لا قال فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ثم نزل فلما كان في الجمعة الثانية وصعد المنبر وقال أما بعد أرتج عليه فقال أتدرون ما أريد أن أقول لكم قالوا نعم قال فما حاجتكم الى أن أقول لكم ما علمتم فلما كانت الجمعة الثالثة قال أما بعد فأرتج عليه قال أتدرون ما أريد أن أقول لكم قالوا بعضنا يدري وبعضنا لا يدري قال فليخبر الذي يدري منكم من لا يدري ثم نزل

وأتى رجل من بني هاشم اليمامة فلما صعد المنبر أرتج عليه فقال : حيا الله هذه الوجوه وجعلني فداها قد أمرت طائفي بالليل أن لا يرى أحداً الا أتاني به وان كنت أنا هو ثم نزل

وخطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى فأرتج عليه فمكث ساعة ثم قال والله لا أجمع عليكم عياً ولؤماً من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ

obeikandl.com

نظرة تاريخية

obeikandl.com

obeikandl.com

— ١ —

قلنا في صدر هذا الكتاب ان الخطابة فطرية في الانسان ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ آثارها ففي الماضي البعيد كان بوذا يخضع الجماعات لكلامه المنزل وكانت نبوات اسرائيل تهز الملوك والامم وكانت اليونان حافلة بالبلغاء أي برجال قادرين على تحريك الشعب واثارته لعهد اوميروس وقبل ذلك العهد . ولكن فرقاً عظيما بين هذه البلاغة الغريزية التي يولدها وحي الساعة ثم تزول غير تاركة أثراً والبلاغة العلمية التي امتازت بها العصور الراقية حيث كان الخطيب على حظ موفور من الفلسفة والتاريخ فكان يلقي خطابه بعد التفكير ويمكنه أن يكتبه فلا تزيل تلاوته من حسنه شيئاً

هذه البلاغة الناتجة عن درس واف وثقافة عالية وتمرين متصل أوجدتها أثينا في القرن الخامس قبل المسيح ولا بدع فقد كانت أثينا حينئذ في مكان سام من الحضارة وشرف باذخ

وكانت فرص القول متعددة لان الاعمال الاجتماعية كافة كانت تقضي جهاراً ويجادل فيها أمام الجميع وكانت المسائل العمومية تدرس في مجتمع الامة إحيث يحق لكل وطني أن يبدي رأيه وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم الشعبية فيباح الكلام لمن أراد حتى المتهم . اضف الى ذلك اجتماعات الادب والعلم التي لم يكن للسياسة ضلع فيها فكانوا يجتمعون للذة الحديث والاستمتاع بخطيب بارع يتحدث اليهم في موضوع ما كالثناء على الابطال الذين يموتون في سبيل الوطن أو غير ذلك

وأشهر خطباء هذا العهد برقليس وازدكرات واشين ودموستين

وقد كان كل من الآخرين زعيما لحزب سياسي فقضيا العمر في عراك محتدم الوطيس والغاية واحدة هي استقلال الوطن

كان فيليب ملك مكدونيا ينتهز فرصة الخلف القائم بين اليونان للوصول الى اخضاعهم بالقوة او الحيلة وكانت أثينا منقسمة على نفسها فقسم محافظ على ماضيه المجيد غير راض عن فيليب ولكنه ضعيف الهمم لما ساور الاخلاق من التخنث فلا قبل له بالاقدام على امر ذي خطر . وقسم يريد التحالف مع فيليب . وكان ديموستين حاملا لواء الحزب الوطني واشين الحزب المكدوني وهذا الاختلاف في موقف الخطيبين خلع مسحة خاصة من البلاغة على كل منهما فلم يخل كلام اشين من الزخرفة بينما كان ديموستين كله روحاً وعصباً . وكانت بلاغة ديموستين مرآة صادقة لخلقه القوي الشديد ونفسه الملتهبة فكانت تنم عن عزيمة أدبية لا تقهر يصرفها ذهن صاف ومنطق محكم وإباء عظيم ولسان هجام فكان تارة جاداً وطوراً هازلا يستخدم العقل حيناً والعاطفة حيناً آخر هادئاً غضوباً سامياً بسيطاً وحتى اليوم لاتزال خطبه حافظة أثرها فنشعر به عند قراءتها كانما صوته يدوي في آذاننا

وكان صوت ديموستين آخر ما سمعته أثينا فان البلاغة لا تعيش بدون الحرية وقد جاء انتصار مكدونيا ضربة قاضية عليها فبقيت أثينا مدينة العلم والادب وملاهي العقل ولكن منابرها اقوت من تلك النغمات الساحرة . ان الذي جعل اثينا عاصمة اليونان هو حياتها السياسية فلما ذهبت أغراض السياسة منها اصبحت كباقي المدن وامتدت فتوحات الاسكندر ناشرة بذور اليونانيين في الشرق فقامت عواصم جديدة كالاسكندرية وانطاكية وبيزانس وبقيت اثينا كمعرض يؤمه كل من اراد الدرس أو التذكار

ولم يبلغ خلفاء ديموستين شأوه في الخطابة ولكن اليهم يرجع الفضل في نقلها الى الذرية فان المدارس التي اقاموها في الشرق كان يحج اليها الناس من كل صوب لتلقي هـذا الفن وعلى هذا الوجه لقنوا الرومان اسرار بلاغتهم فتعشقها هؤلاء واخذوا يدربون عليها فتيانهم كما يدربونهم على الحرب والحكم الى ان ظهر شيشرون الذي يعده العارفون اعظم محام لذلك العهد فأرجع للخطابة مجدها السابق وسطع نوره في سمائها كما سطع من قبل نور ديموستين ثم هوت الخطابة ثانياً وانطوى بساط عزها باستعباد اوغسطس روما كما استعبد فيليب واسكندر اثينا

ولما جاءت النصرانية بعثت فيها روحاً جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء إذ قيل لهم سيروا في الارض وعلموا الامم . وقامت الكنائس على آثارهم وكان هذا الدين الجديد في حاجة الى ارشاد مستديم فنبغ خطباء بين آباء الكنيسة أعادوا للخطابة بعض عزها . ولكن لم يطل ذلك بما تطرق الى اللغة اللاتينية من فساد لغات غريبة هي لغات الامم المختلفة التي دخلت تباعاً في المسيحية وأخذ العي يملك ألسنة الوعاظ فصاروا يكتفون بنسخ الخطب القديمة والقائها حتى اذا طلع القرن السادس استيقظت الخطابة من ضجعتها وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم في الجماعة وكان من نتائجها الحرب الصليبية وبلغ من تكاثر عدد الخطباء لذلك العهد والمنافسة فيهم ان الخطابة تحولت الى واسطة للكسب وجمع المال والهدايا فنزلت عن مقامها السامي وأخذت معالمها تتلاشى الى العصر السابع عشر عصر بوردالو وفنلون وبوسيه ودعاة الاصلاح والندوة العلمية التي أنشأها الكردينال رشليو

وأجمل أيام الخطابة بعد هذا هي أيام الثورة الفرنسية فقد اطلعت

في عشر سنوات من الخطباء عدداً لم يسبق به عهد وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير والسبب في ذلك ضخامة المشروع الذي أخذت الثورة على نفسها القيام به ثم السلطان الفجائي الذي القى اليها الدهر مقاليده والسرعة الهائلة التي كانت تتعاقب بها الحوادث ثم شدة العراك يختلط به غريزة البقاء وأعمار الخطباء وأكثرهم في شرخ الشباب . ولم تكن مشاغل النفوس وأهوالها لتمنع أولئك الخطباء من العناية بالشكل والديباجة والباس أفكارهم حللا براقة من الالفاظ والتعابير بما اتصل بهم من تأثير العصر السابق فكانوا يكتبون خطبهم قبل القائها على ان ذلك لم يكن مانعاً لهم من الارتجال عند الضرورة فتجيء أقوالهم ملتهبة كنفوسهم وفيها على بساطتها من اخلاص الشعور وتأثيرات النفس ما يبعث القوة والحرارة

ثم خفتت الاصوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام وأقوت المنابر وجاء نابوليون وكان لا يحب الخطباء فلم يعد يسمع الا ضجيج المواقع الحربية ومن فوقها صوت واحد يملأ الكون هو صوت ذلك القائد العظيم

أما اليوم فقد عادت الخطابة الى الظهور بنور أسطع ومجد أكمل وامتدت أعراقها الى كل فؤاد ونشرت أنويتها في كل ناد من قصور الاغنياء الى أكواخ الفقراء ومن معاهد العلم الى ملاعب التمثيل الى مجالس الادب والطرب الى الاسواق

— ٢ —

كان للعرب في الخطابة نصيب وافر أتاحه جوهم وأحوال معاشهم وأخلاقهم وآدابهم فان الحرية التي وجدوا فيها واستنشقوا هواءها والحماسة التي طبعوا عليها والاحساس الشديد الذي اشتملت عليه نفوسهم جعل للبلاغة أثراً عظيماً فيهم فكانت الجملة البليغة تقيمهم وتقعدهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة لحماية جار أو أخذ ثأر أو غير ذلك

وكانوا متفرقين قبائل ونحل متعودين على الغارات والحروب فوجدوا في الخطابة عوناً لهم على الحض أو التحذير والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة بل صارت عندهم مظهراً من مظاهر الفروسة يتباهى بها شجعانهم ويدرب عليها فتيانهم كما في الرومان

قال عمرو بن العلاء كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا في أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر

ولم تكن الخطابة عندهم كما أشرنا اليه في الكلام عن الارتجال عن طول فكرة واجتهاد رأي ودراسة كتب بل بديهة وارتجالا وكان لهم بها غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان: « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه

في مشافهة الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد». قال: «ولو لا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الانام وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطار ذكرها ما تميزت عن سواها»

قال القلقشندي: «وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل وسبق الى ذرى المجد ويخصون ذلك بالمواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والمجامع الحفيلة فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثني عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر أو فخر أو صلاح أو نظام أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

قال الحافظ: «ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمنعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنزر القليل ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وابي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون

أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير وأخرى انك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق أو خطيب مصقع علم ان الذي قلت هو الحق وأبصرت الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عني فهمك الله ما أنا قائل » انتهى

وكان يسمى خطيب القوم الزعيم أو المدره وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة وعمرو بن كلثوم واكثم بن صيفي التميمي والحارث بن عباد وقس بن زهير وغيرهم

ولما جاء الاسلام ساعد على انتشار الخطابة تأييداً للدعوة الكبرى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان لها من آي القرآن معين لا ينضب وأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلا أو اشارة أو تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب ابن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله (أنظر القسم الثالث في خطب العرب)

واتخذت الخطابة حينئذ صبغة غير التي كانت عليها في الجاهلية فكانت لغتها أرق وأعلى وأصفى وعلا شأنها إلى درجة لم يسبق بها عهد لانصراف العرب عن الشعر اليها واعتمادهم في الدين والسياسة عليها

وأعظم خطباء هذا العصر هم بعد النبي دعاته وقواده وخلفاؤه

ولما ثارت الفتن بعد مقتل عثمان وافترق المسلمون أحزاباً اشتدت الحاجة اليها عند كل فريق للدفاع عن مبادئه والطعن في خصومه فكان في الجانب الواحد العراقيون وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وفي الجانب الثاني الشاميون وفي طليعتهم معاوية

ثم أخذت تضعف ملكة الخطابة بعد الفروغ من الفتوح والاستسلام الى الترف والرخاء حتى صدر الدولة العباسية فاذا بالخلفاء ودعاتهم ينعشونها بعد الذبول وينهضون بها بعد الخمول كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة

ولما استوثق الأمر لبني العباس وقام الاجناب والموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش وقل النضال باللسان واللسان ذهبت البلاغة من الألسنة وحل محلها الرسائل والنشرات وقصرت الخطابة على الجمع والعيدين والاملاك . على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم الى عهد الخليفة الراضي فلما غل الديلم أيديهم وحصروهم في دورهم عهد بالخطابة والامامة الى الأكفاء من العلماء فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الادباء شهروا بهذا النوع من الخطابة كالبغدادي والتبريزي ولما استعجم المسلمون وملك العي ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا انشاء الخطب في الموضوعات المختلفة عمدوا الى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها ودرجوا على هذا الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى اليوم ، (راجع تاريخ الآداب العربية لزيدان والادب العربي للزيات والوسيط للشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى العناني)

واليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة وتعددت مظاهر الاجتماع وتبدل شكل الحكومات وتغيرت سلطة الحكام عادت الخطابة الى الظهور لابسة ثوباً آخر غير ثوبها الديني فظهر في الشام لعهد غير بعيد أديب اسحق والشيخ العازار وغيرهما وفي مصر عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول أعظم خطباء هذا العصر الحاضر وأقواهم حجة وأبعدهم تأثيراً وأكثرهم بياناً

أنواع الخطابة

obeikandl.com

obeikandl.com

قسم اليونان قديماً الخطابة الى ثلاثة أقسام تبعاً لاحوال الزمان من ماض وحاضر ومستقبل وسموها البيانيـة أو التثبيتية والشورية والقضائية فالاولى تختص بالزمن الحاضر لمدح فترغيب أو ذم فتنفير والثانية تتعلق بالمستقبل لتحمل السامع على جلب النفع للجمهورية أو دفع الضرر عنها أو للحض على الحرب أو السلم وسن هذه الشرعة أو تلك واستمالة رأي الجمهور أو التغلب عليه ، وكانت تجري في الهواء المطلق أمام جماعات متهيجة بين الصخب والضجيج والمقاطعة والمعارضة والتكذيب وكان على الخطيب أن يقاوم أمواج هذا العداء المتلاطمة من حوله وكثيراً ما خطب غير واحد في آن واحد كأنما هم في ميدان قتال لا مجال كلام . ولما بطل الاجتماع في « الفورم » أي المحل العمومي أو السوق بطل هذا النوع من الكلام

والقسم الثالث أي القضائي يختص بالماضي والغاية منه الدفاع عن متهم أو الحكم عليه وهو من خصائص المحامين

هذا التقسيم وضعه ارسطو الذي جعل الخطابة أحد أقسام المنطق وألف فيه كتابه الذي عربه بشر بن متى في القرن العاشر ولخصه ابن رشد . وقد مشى على هذا التقسيم أرباب الخطابة عشرين قرناً . أما اليوم فقد تبدلت أحوال المعيشة المدنية والسياسية والدينية مما دعا الى تبديله . دعك من انه تقسيم بعيد عن الدقة والاحكام لتداخل الواحد في الآخر من هذه الاقسام فان الخطيب الذي يتكلم عن الماضي لا بد له من الالمام بالحاضر والمستقبل على سبيل الاستشهاد وغيره وكذا العكس

والمعول عليه اليوم هو تقسيم الخطابة الى خمسة أنواع : سياسية وقضائية وعسكرية ودينية وعلمية

الخطابة السياسية

كان لهذا النوع من الخطابة فيما مضى المكان الاول لصلته المكينة بحياة الامة في هبوطها وصعودها فان الامة كانت كل شيء وكان عليها مدار العمل في الحرب والسلم فكان تأثير البلاغة أقرب واسطة الى تحريكها ودفعها في طريق معينة . ولا يخفى ان المقصود بهذا القول الامم الحرة كاليونان والرومان وأما المستعبدة المغلوب على أمرها فلم تكن تعرف هذا الفن ولا تحلم به لضعفها وخنوعها وامتناع الكلام عليها

وكان الخطيب السياسي مضطراً الى الالمام بأسرار الدولة الداخلية والخارجية والتعمق في درس أحوالها المادية والعسكرية فضلا عما يحتاج اليه من حدة خاطر وشدة عارضة وحماسة في القول . ونحن مهما نحاول اليوم أن ندرك بالتصور مقدار الأثر الذي كان لرجل مثل ديموستين أو شيشرون في أمته لا نصل الى الظفر بالحقيقة . نقرؤهم بعد هذا العهد البعيد فنعجب بهم أيما اعجاب فكيف لو سمعناهم واتصلت بنا نظراتهم وشهدنا عن كثب حركاتهم وما يتجلى فيها من روحهم الثائرة

وقد أتى على الخطابة السياسية زمن تقلص فيه ظلها من بعد العصر الروماني الى أن عادت الى الظهور في بلاد الانكليز لعهد اللورد شاتام ثم دزرائيلي وغلادستون وفي فرنسا إبان الثورة وبعدها وكانت أيام الثورة كما مر بنا أجمل عهد للخطابة بمن لمع فيها من أشباه برناف ودانتون ودمولن وميرابو وغيرهم ولم يقصر في ميدانها من أتى بعدهم من نابوليون الى بنجمان كونستان والجنرال فوي وغامبتا وتيارس الى كليمانصو وجيورس وفيفياني وبريان وبوانكارة لعهدنا هذا

على أن خطباء العصور الاخيرة لم يبلغوا شأو الاقدمين ولم يكن لهم تلك الجولات الواسعة التي عرف بها الأولون فقد صار من النادر أن يقف الرجل في مكان عمومي ويخطب في قوم لا معرفة له بهم وأغلب ما تكون الخطابة السياسية اليوم في محفل يضم اخواناً وزملاء كندوة النواب مثلا ثم ينقل البرق الخطاب مختزلا الى أطراف المعمور فلا يكون له في المطالع أثره في السامع ولهذا قصرت غاية الخطيب على التدقيق في موضوعه وفي أرقامه الاحصائية متجافياً ما أمكن وجوه الاستعارات وضروب المجاز وما الى ذلك وقد كفى مثلُ هذا ميرابو وتيارس وغامبتا ليدركوا ما وراء الغاية من التأثير في معاصريهم

ومن نواب الفرنجة اليوم من لا يعتمد على العاطفة في خطبه بل ينهج سبيل المنطق البحت كأنه يتكلم في جمع من مديري البنوك ورجال المال والتجارة كما ان منهم من لا يزال يلجأ اليها كلويد جورج وبريان طلباً للاجادة في التأثير على انه تأثير وقتي لا ندري ما يبقى منه بعد ربع قرن . واننا نقرأ خطب كليمانصو التي كانت تثير الزوبعة في مجالس فرنسا فيعترينا الدهش ولا نعرف من أين كان لها هذا الوقع

واذا راجعت خطب مصطفى كامل وسعد زغلول لم يخف عليك ما فيها من سلاح العاطفة وتبين لك ان هذه الطريقة لا تزال أقرب الطرق الى قلوب الجماعات

والخطابة السياسية من أصعب فنون الخطابة لان حركات الامة هي نتيجة مد وجزر يولده سيطرة الافراد على الجمهور أو الجمهور على الافراد فيتبع الخطيب هذه الامواج آمراً في القوم أو خاضعاً لرغائبهم فلا هو واثق بالنجاح كل الثقة ولا يائس منه كل اليأس

وقلما نجد من خطباء السياسة من لم يذق في احتكاكه بالجمهور لذة الانتصار أو لوعة الانكسار وهذا يدلك على حرج الموقف وما يقتضيه من درس عقلية النواب والتعرف الى أميالهم وأخلاقهم كما يتعرف الطبيب الى جسم الانسان جزءاً جزءاً . والذي يعرض عن هذا الدرس مكتفياً بما رزق من صنع اللسان وبلاغة البيان أو عرف به من نزاهة القصد واخلاص النية لم يسلم من الخيبة والفشل أحياناً بل لو طرح قلبه على المنبر لما أقنع السامعين اذا هم أبوا الاقتناع

على كل حال من أهم واجبات الخطيب النائب أن لا يقرب خلتين الاولى الغضب لأنه آفة العقل والرزانة والثانية استعمال الفاظ سافلة تدعو الى الأسف والندم

الخطابة العسكرية

تختلف هذه عن الاولى كل الاختلاف لان الحرب لا تدع مجالا واسعاً لتزويق الجمل ومهما يكن الخطيب جهير الصوت فهو لا يستطيع أن يسمع الالوف ولذلك جرت العادة أن تكتب الخطبة وتوزع على الجند . والغاية من الخطابة العسكرية هي إنهاض همم الجنود واذكاء نار الحماسة فيهم واثارة النخوة والحمية والاقدام وتهوين الموت وتجميل التضحية واعطاء الثقة بالنفس والامل بالنجاح

ومن أجمل الخطب العسكرية خطبة طارق بن زياد قبل فتح الاندلس وخطبة نابوليون في حملة ايطاليا وبين الخطبتين كثيرمن الشبه كأن روحاً واحدة أوحت الى البطل العربي والقائد الكورسيكي تلك الكلمات النارية الساحرة

قال طارق : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

« وقد استتبعكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات الا ماتستخلصون من أيدي عدوكم »

وقال نابوليون : « أيها الجنود لا قوت لكم ولا كساء . الحكومة مدينة لكم بالكثير ولاتستطيع أن تعطيكم شيئاً وان في صبركم وشجاعتكم لشرفاً لكم ولكن ليس من ورائهما ربح ولامجد . سأقودكم الى أخصب سهول العالم . ستجدون مدناً كبيرة وضياعاً غنية ، ستجدون الشرف والمال والمجد . اي جنود ايطاليا أتعوزكم الشجاعة ؟ »

ومثل هذا قول روش جامكاس في حرب الفانداي : «أيها الجنود إن أنا تقدمت فاتبعوني وان أحجمت فاقتلوني وان مت فاثأروني »

وفي كتب العرب كثير من أمثال هذه البلاغة سنعود اليه في مكان آخر

الخطابة الدينية

لم يعرف هذا النوع من الخطابة عند الافرنج الا بعد ظهور النصرانية وكان حامل لوائه آباء الكنيسة من اليونان وهو يمتاز بصراحة القول والتهديد والاستشهاد بآي الكتب المقدسة وبالتحليل الفلسفي مع البساطة في التعبير وأساسه قائم على العلوم الدينية المبنية على الوحي والعلوم البشرية التي تساعد الخطيب على الاستشهاد والتفسير ودعم الحجة وكلما كان الواعظ متعمقاً في الفلسفة والادب والطبيعيات أمكنه أن ينال من قلوب السامعين وعقولهم بما يكتسب قوله من

الجاذبية والرواء وتلبس معانيه الصارمة من حال اللفظ الرشيق وتكسى من بهجة الشواهد المتنوعة والامثال التي توقظ الخاطر وتقصي الملل وتساعد على الاقناع

وسواء أكان الموضوع دينياً محضاً أو تأويلا وشرحاً للآيات المنزلة أو رداً على أقوال الملحدين ودفاعاً عن الدين فالغاية من الموعظة واحدة وهي تثبيت الايمان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهي من حيث الفائدة الدنيوية جريلة النفع بما تجلب من التعزية للحزين والشجاعة للجبان والقوة للضعيف والامل للبائس والصبر لمن خانه الصبر على شرط أن يكون الواعظ ممن خبروا النفس البشرية وامتلكوا ناصية البلاغة وكان في كلامه مخلصاً تقياً وفي تبشيره صادقاً وفياً

أما عند العرب فالخطابة الدينية عزيزة المذهب أيضاً جليلة الغاية بعيدة المرمى وقد أوجبها الشارع وسنها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج أي في عرفة وأوجب على الحضور التزام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث: «اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت» ولم يعين الشارع موضوعاً خاصاً للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدي الشارع ما يهذب به أرواحهم ويهيب بهم الى بارئهم ويغرس فيهم مكارم الاخلاق وليطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغي والظلم ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم وأحقادهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويزين

لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات (عن القديم والجديد لكرد علي)

الخطابة القضائية

فيها من كل فن خبر لان المحامي يدعى الى الخوض في كل موضوع وعليه أن يلم بأطراف العلوم ويكون واسع الاضطلاع موفور الحفظ ولا سيما في هـذا العصر فان اتساع ميدان العمل أخرج المعيشة عن حالتها البسيطة وولد في المعاملات الاجتماعية وعلائق الناس بعضهم مع بعض حقوقاً جديدة كما قال هنري روبير وخلق مشاكل لم تكن موجودة أو معروفة وجعل موقف القضاء أشد حرجاً وأكثر غموضاً

لا يكفي المحامي أن يكون بارعاً في علم الحقوق بل هو في حاجة الى بصيرة نقادة وذهن قادر على هضم أنواع العلوم لان المسائل التي يوكل اليه البحث فيها هي علمية وطبية ومالية وزراعية وفنية وعليه أن لا يجهل شيئاً مما يمكن أن يعبد له طريق الفوز فهو في آن واحد عالم وطبيب وتاجر ومهندس ومؤلف وغير ذلك

ثم عليه بعد أن يجعل دماغه موسوعة علوم أن يعرف كيف يحرك العواطف ويثير شجون النفس لأن من المحامين من لا يعرف القانون ولا يأبه به وانما هو يحكم بما يمليه عليه الشعور والضمير

قال كركوى : « يا لتعس المحامي الذي لا يحس لأول عبارة يتلفظ بها ارتياحاً من جانب القاضي وتشوقاً لمعرفة ما سيقول ولذلك كانت العناية بالمطلع وبراعة الاستهلال أول ما يجب الأخذ به » ويروى عن محام في احدى القضايا الكبرى انه بدأ مرافعته بهذه الجملة الجذابة : « موكلي

يطلب من عدلكم مليونين ومائة وخمسة وعشرين الفاً وثلاثمائة واثني عشر فرنكا وخمسة وعشرين سنتيما ولا أنس السنتيم لان حقي جلي واضح فأنا أطلب الكل أو لاشيء »

ومن بدائع الاستهلال ما فاه به الوزير كاليو في مرافعته عن نفسه بعد ما قتلت زوجته الثانية المسيو كالمث منشيء الفيغارو الذي كان ينشر في جريدته وثائق ضد كاليو فان زوجة كاليو الاولى المطلقة منه هي التي قدمت هذه الوثائق وكانت السبب البعيد في هذه الجريمة فجاءت الى المحكمة كشاهد ضد كاليو وزوجته القاتلة وبعد أن تكلمت كما شاءت وقف كاليو وقال ما معناه :

« أريد اليوم أن أجرب أصعب شيء في حياتي. ولكن ثقي يا سيدتي انه لا كلمة جارحة تخرج من فمي ولكن الذين سمعوك على هذا المنبر أصدقاء وأعداء قد أدركوا انه بين رجل لا ينكر أحد عليه العزم والمقدرة والارادة وبينك يا سيدتي أنت التي تحوي على بعض هذه الصفات الى حد المبالغة قد أدركوا انه من المحال أن تدوم الحال . . »

وأحسن وصف ينطبق على المحامي خصوصاً والخطيب عموماً ما كتبه غامبتا في وصف المحامي لاشو وقد آثرنا تعريبه هنا اتماماً للفائدة

كان لاشو من أشهر خطباء العصر التاسع عشر وقد دافع في أكثر قضايا الاجرام كقضية مدام لافارج في مقتل زوجها والطبيب لابومره المتهم بقتل اثنين تسميما وتروبمان قاتل أسرة كاملة من أب وأم وستة أولاد ودافع أيضاً عن المرشال بازين أمام المجلس الحربي في تريانون وقد وصفه غامبتا وصفاً دقيقاً يحق أن يتصف به كل خطيب وكل محام كأن هذا الرجل الذي كان يقيم فرنسا ويقعدها ببلاغة أقواله أراد

أن يجسم في الكلام ويرسم بنفثة من يراعه ما كان يختلج بين جنبيه من تلك القوة الساحرة التي امتاز بها خلقه العجيب قال :

« ان ما يغريني في لاشو هو سهولته وارتجاله وقوته واستقلاله وما قبضت على القلم الا لأظهر اعجابي بهذه الصفات

« ان بلاغة الخطباء المرتجلين هي كالنار التي يشبهم بها «تايسيت» اذا خبا أوارها عفت آثارها . أجل ان الارتجال قوة لها على القلوب سلطان الساعة وقد بلغ فيه لاشو من السهولة والاقتدار مبلغاً لم يعرفه الا من كان في طبعه ومزاجه . يقوم وقد هزه كلام الخصم فيندفع اندفاع السيل فاذا بالعقل مأسور والجنان مسحور ثم يزول كل شيء . أين هو هذا الخطاب الجميل ؟ قيد البرق ان استطعت ، احبس الريح التي تهب أوقف المحامي لاشو . لكلامه وميض البرق الخاطف وهو كالريح فتارة نسيم وطوراً اعصار ولا سبيل الى حفظ هذه الاقوال المجنحة الا اذا جمعنا بين تصوير الصوت وتصوير الموسيقى

«جبين واسع وضاح، شفة عريضة عليها ابتسامة ناعمة ، عين كبيرة متحركة الاجفان هذه العين التي تجدها مسترخية عند الراحة تسطع بأنوار هائلة فجائية أو تبسم بأشعة لطيفة تنتشر على القزحية وتنير من كل جانب أعماق تلك الكرة . رأس ملء حركاته عظمة وجلال . جسم معتدل وفيه خفة الفتوة . أضف الى هذا صوتاً جميلا طبيعياً واسع المدى كأن فيه شيئاً من البوق وشيئاً من القيثارة

«اذا غضب يتحول صوته الى زئير فيخرج من صدره طبقات كثيفة صافية رنانة ويرتفع الى أعلى درجة من النبرات ثم يهبط بلا تعب الى عذوبة الاستعطاف أو الشكوى

«واذا رضي أصبح الصوت نغمة أوحفيفاً كأن هناك آلة موسيقية تبعث ألحاناً شجية يحسدها عليها أطرب المنشدين

«ان للاشو كل ما يلزم ليكون محامي العواطف وقد صار كذلك بفضل شعور منبعه النفس لا الفن . لقد أتمت الطبيعة على لاشو نعمتها من ضمير يبعث الضياء الى فكر ينفث السحر الى لحظ باهر واحساس قاهر. وبساطة تقرب منال الالفاظ والمعاني وعاطفة تحمل معها السامع وأداء يأخذ بالابصار والقاء يستولي على مجامع القلوب . لله دره ما أعرفه بأسرار النفس البشرية وما فيها من عثرات وألم وشقاء وخيانة . لقد دخل في ذلك النفق المظلم نفق الحياة العصرية ونزل اليه درجة درجة فأبصر كل ما فيها من بؤس وفظائع ووقف على محركاتها وأدرك أسبابها ولمس بيده جراحاتها ورأى عن كثب ما في أعماقها من أصناف الذل وألوان العار ولما انتهى الى هذا الحد أخذته الشفقة على هؤلاء الساقطين شهداء الاقدار فصعد من الاعماق حملا معه الرحمة ، ومنذ ذلك الحين تخذ موقفه الى جانبهم يدافع عنهم بقلمه ولسانه وينصرهم بحكمته وبيانه ويفتح لهم أبواب النجاة بقوة برهانه

***

« وسر المقدرة انه يتعمق في درس الدعوى ويلج الى قلب القضية فينظر بعين المتهم ويحس بأعصابه فيغضب غضبه ويصرخ صراخه كأنه يطلب الرحمة لنفسه ويترجم عن يأس المسكين بيأسه . يأخذ شبكة الاتهام ويلقيها على ذاته بافتخار ثم يقطعها تقطيعاً كأنه من مصارعي الرومان .

« يكفيه دقائق معدودة ليرى كل شيء ويقبض عليه ويسبر غوره

ويدرك كنهه . انظر اليه جالساً مصغياً الى أقوال المدعي العام واستنتاجاته وتهمه واهاناته وهو مطمئن النفس ساكن الجأش لا يتحرك فيه غير يده المحمومة تقطع بالمدية قمطا وقع اليه . يستقبل بصدره ضربات الخصم ويعدها ليردها اليه بعد قليل بالربا الفاحش . ينظر الى خصمه وجهاً لوجه لان قوته ستظهر عن قريب . تلك القوة هي كلماته العظيمة التي يوحيها اليه احتدام الجدل والمناظرة فيخترع ويبدع وينفخ كالخالق روح الحياة في خطابه

« يتقدم الى المنبر حر الفكر لا يعيقه تذكار ولا تقيده لفظة هيأها أو جملة ركبها . لقد أعمل فكره وكفى وما أحقه بما قيل عن فوسينون: « ليست ذاكرته للالفاظ والجمل بل هي صفحة حساسة تلتقط كل التأثيرات وتقع على كل المعاني فهو يتنبه تنبهاً ولا يتذكر تذكاراً »

« واذا كان المتهم واحداً من أولئك العاثري الجد الذين يخشى منهم ويشفق عليهم فانه يعرف أن يمشي اليه بجرأة ويرفعه ويحمله بذاته فوق حافة الهاوية كأنه يريد أن يزجه فيها ثم يريك باشارة أعماقها المظلمة فتتراجع مذعوراً وإذ ذاك يرفع الخطيب رأسه ويرفع المتهم معه شارحاً حاله خالعاً عليه حلة جديدة باكياً مستعطفاً واذا بالرجل قد نجا لانه من فوق الهوة البعيدة الغور تنتصب الرحمة التي هي عدل القلب والتي يقدر الصوت العظيم أن يوحيها أبداً الى النفوس العظيمة

« اي وايم الحق عند ما نسمع لاشو يتكلم لانتمالك أن نقول مع أفلاطون : « الكلمة هي الله »

« أرأيتم صدق كلامي؟ هذا الرجل يمثل الفطرة الصادقة بكل معانيها ولا سبيل للتقليد اليه فهو لا يعنى بمطلع خطابه ولا يعتبر الختام القسم

الثالث من الخطبة بل القبضة الاخيرة التي تخنق الخصم . والعادة أن لا يكرر الخطيب ختامه الواحد في كل خطبة أعدها أما لاشو فهو في كل قضية يستطيع أن يكرر هذه القبضة الهائلة

وعلى الجملة أقول ان من لوازم الخطيب أن يستقل بنفسه ويتبع فطرته ولا يعتد بما مشى عليه غيره أو ألفه سواء أو جرت العادة أن يقال ويسمع . قد يصل بالتقليد الى نيل الاستحسان ولكنه لا يصل الى السيطرة على الضمائر وقد صدق تاسيت حيث قال : « خير للخطيب أن يتزمل برداً خشناً من أن يصقل وجهه بطلاء الحظايا »

الخطابة العلمية

هي ان شئت أقل الخطب بلاغة لا تستنزل الدموع ولا تثير العواطف ولا توقد نار الغضب والحماسة ولا تحرك عوامل البغض أو الرحمة . كلام علمي صناعة وبحثاً وتركيب بسيط يقرب منال الحقائق العلمية من الاذهان . على ان البلاغة الحقة لا تعرف لها حداً فهي تتدفق من القلب والفكر أياً كان الموضوع ، والخطيب البليغ يعرف أن يخلع حتى على الموضوع الجاف لمحة من الجمال والرونق والجاذبية فتزداد بساطته تأثيراً

وأول ما ظهرت الخطابة العلمية في فرنسا لعهد الكردينال رشليو مؤسس المجمع الشهير المؤلف من أربعين عضواً يسمونهم الخالدين وينتخبونهم من بين أرباب السيف والقلم ورجال الدنيا والدين

وهي تتناول المحاضرة والمدح والتأبين وما شا كل

المحاضرة — (ويسميها الانكليز قراءة أخذاً عن الروائي الشهير دكسون الذي كان يتلو مؤلفاته في حفل من الناس) هي ضرب من

الدرس يلقى على الجمهور كما يلقي المعلم درسه على تلامذته ومريديه وقد لا تخلو من مسحة خطابية حسب الموضوع والكاتب وغايتها الاقناع بمعالجة الموضوع الفلسفي أو التاريخي على نمط واضح الاسلوب سهل المأخذ وكثير من الذين لا قبل لهم بالخطابة يستطيعون أن يفلحوا في المحاضرة ولا سيما المرأة التي قلما يساعدها الصوت وتركيب بنيتها على الخطابة بدون تعب

ويدخل في المحاضرات السمر وأحاديث الأسر والاندية الادبية وقد كان للسمر مقام في العصور الغابرة وبلغ أوجه في القرن السابع عشر في فرنسا فكانت أوتل رمبوليه مجتمع السادة الادباء والنساء الشهيرات بالحسن والظرف والذكاء والصبابة . وقد كان لاجتماعاتهم وما يدور فيها من حلو الحديث أثر عميق في أخلاق ذلك الجيل وآدابه ثم أنشأت نينون ده لا نكلو ناديا للسمر في منزلها كان كالمعبد يحج اليه خيرة القوم وكان فن الخطابة محترماً يعتبرونه مدرسة الادب والحياء وحسن الذوق وطيب الشمائل ورقة الشعور

أما اليوم فقد عصفت حمى الحياة بكل هذا غير انك تجد حيناً بعد حين بعض الحفلات الخصوصية يقيمها نفر من العلماء أو المتأدبين في دورهم فيتجاذبون أطراف الحديث فيما يعرفون من علم أو فن كما كانت تفعل فلاسفة اليونان حينما كانوا يجتمعون تحت ظلال الاشجار في حدائق غناء تعبق أزهارها وتشدو أطيارها

وربما كان للعرب شيء مما ذكرنا غير ما يروى عنهم من اللهو والعبث والمجون وفيما حفظ عنهم من الاجوبة التي كان يحملهم عليها المقارعة في الحديث والجدل ما يجعلنا نعتقد ذلك

المدح والتأبين ـ التأبين هو مدح الميت خاصة يلقى يوم المأتم أو يتلى في حفلة التذكار التي تقام له ويراعى فيه عمر الميت وقدره وخدماته ثم يستطرق منه الى التعزية وذكر الحكم الخالدة التي تخفف أحياناً من لوعة المصاب ويختم باستمطار الرحمة والسلام على الفقيد وحث الناس على الاقتداء به . ومجال الكلام في هذا الباب واسع للخطيب القدير الذي يتلاعب بالالفاظ والمعاني دون أن يهوي في المبالغة أو الاطالة والتكرار

وأما خطب المدح وما يتصل بها من الشكر والتهنئة والتكريم فهي تتشابه موضوعاً وتختلف حسب الاقدار والاعمار وقيمة العمل أو الخدمة التي أداها المحتفى به لقومه وبلاده . وقد أفرط القوم فيها في كل مكان حتى صار من الصعب طرق هذا الباب على من أراد أن يكون مجدداً لا مقلداً . على ان التكريم الصحيح أي الذي يكون لاعمال جليلة القدر حقيقة النفع يعطي الخطيب من الموضوع نفسه مصدراً للوحي فيجمع الاخلاص في البيان الى فصاحة اللسان